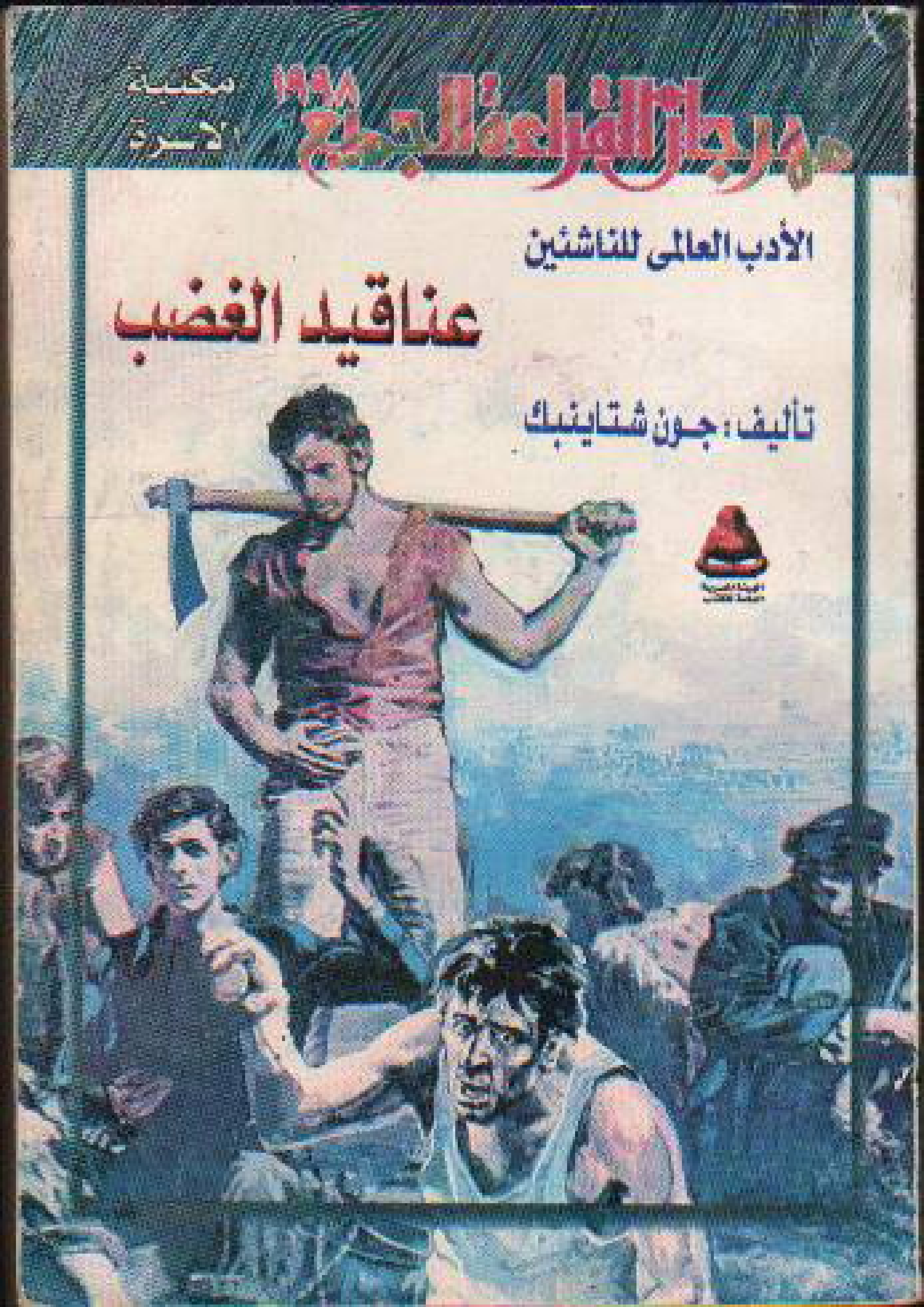

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨
مكتبة الأسرة
الأدب العالمى للناشئين
عناقيد الغضب
تأليف: جون شتاينبك

عناقيد الغضب

تأليف: جون شتاينبك

ترجمة: الشريف خاطر

مراجعة: مختار السويفي



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمى للناشئين)

عناقيد الغضب

تأليف: جون شتاينبك

ترجمة: الشريف خاطر

مراجعة: مختار السويفى

الغلاف: للفنان جمال قطب

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

عن الروايــة والعنوان

جرت أحداث هذه الرواية في شمال أمريكا في الثلاثينيات من هذا القرن . فلفترة طويلة ظل المزارعون الصغار في أوكلاهوما وكذلك في ولايات الوسط في الولايات المتحدة الأمريكية يزرعون محصـولا واحدا ، وهو محصول القطن ، عاما بعد عام ، فأنهكت التربة وأصابها الضعف . وحدث أنه لم يسقط في الثلاثينيات سوى قليل من المطر ، الأمر الذي أدى الى جفـاف التربة وتفككها فتحولت الى غبار ، طار في الهواء بفعل العواصف الشديدة ، وتلاشت القربة .

ازاء ذلك تحتم على المزارعين الاقتراض من البنوك ، لكن الذي حدث أن كثيرا من البنوك بسـبب الأزمة

الاقتصادية التي مرت بالبلاد في أواخر العشرينيات ، وتوقف التجارة ـ ان خسرت أموالها وأغلقت أبوابها ، وبالتالي فان ما بقي من البنوك كان يخشى اقراض أي أحد .

وهكذا أصبح المزارعون الصغار من أمثال عائلة « جوود » بلا أرض ، ولا محاصيل ، ولا مال . وكان الجميع يسمعون عن كاليفورنيا بجوها الرائع ، ومحاصيلها الوفيرة من الفواكه والخضروات . فقد كانت كاليفورنيا ولاية كبيرة ، وكان أصحاب المزارع هناك في حاجة لعمال للقيام بجني محاصيلهم ، فقرر مزارعو أوكلاهوما الفقراء التوجه الى الغرب عبر رحلة طويلة صعبة ، على أمل العثور على عمل هناك ، وذلك على أمل أنه يحدث ذات يوم أن يتملكوا أرضا لأنفسهم .

لكن المزارعين الأثرياء في كاليفورنيا كانت لديهم مشاكل أيضا . كانت محاصيل الفاكهة من الوفرة بحيث

لم يستطيعوا تسويقها . وبالتالي لم يكن في مقدورهم دفع أجور العمال الذين يقومون بجمع المحاصيل ، لأنهم لا يحققون أية أرباح ، ولأنهم مدينون لبعضهم البعض ، وعلى يقين تام بأن البنك سيستولي على أراضيهم في العام القادم . بالاضافة الى خشيتهم من أهل أوكلاهوما ـ « الأوكيز » ـ أن يستولوا على أراضيهم . وازاء هذا كله ، فقد كانوا يدفعون أجورا قليلة « للأوكيز » مقابل القيام بالعمل ، حتى أنهم أصبحوا يتضورون جوعا هم وأطفالهم .

وفي كل أرجاء كاليفورنيا ، كانت محاصيل الفاكهة تترك حتى تتعطن . كان أصحاب المزارع يحرقون محاصيل البن والقطن ، أما البطاطس فكانوا يلقون بها في الأنهار حتى لا يتحصل عليها الناس . وكانت الفاكهة تترك حتى تفسد ، ومحاصيل الغذاء يتم تدميرها ، حتى تظل الأسعار مرتفعة .

كان هناك ملايين جائع يشاهدون المحاصيل الطيبة

وهى تدمر . وكان الأطفال يتضورون جوعا ، بينما كانت رائحة الفاكهة المعطنة تملأ البلاد .

كان الناس يرغبون فى العمل لكن لم يكن ذلك باستطاعتهم ، فشعروا بالاحباط والفشـــل ، وبدا الغضب ينمو وبشكل أكبر فى عيونهم الجائعة .

لقد تحولت الأزمة بمرور الوقت الى حالة من الخوف والغضب ، خاصة عندما بدا الأمريكيون يكرهون بعضهم البعض . وعنوان هذه الرواية « عناقيد الغضب » مستمد من اغنية كتبت اثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ ــ ١٨٦٥) ، عندما كان الأمريكيون يحاربون الامريكيين . وتحكى الأغنية قصة المشاكل التى وقعت فيها البلاد ، عندما قيدت حرية بعض ابنائها . عندئذ من الممكن ان يحطم « حصاد » الغضب كل ســـبل الحياة .

لقد كانت عناقيد الغضـــب تنضـــج داخل نفوس الناس . وكان الناس على استعداد ساعتها لتقبل « حصاد صعب » نتيجة لمرحلة من السخط والتخريب .

الفصـــل الأول

الغبـــار

فى اوكلاهوما شقت المحاريث الأرض الحمراء . وتساقط المطر فنما القمح . وفى نهاية شهر مايو سطعت اشعة الشمس بقوة فوق القمح النامى ، فغدا مستقيما أخضر . واشتدت سطوة الشمس على الأرض ، حتى جفت وشحبت . وفى شهر يونيو زادت حدة الشمس فاصبح الهواء خفيفا .

فى كل مكان ، كان يتناثر الغبار ، وكل شىء يتحرك كان يثير سحبا من هذا الغبار ، تظل عالقة فى الهواء لفترة طويلة .

في منتصف شهر يونيو وفدت سحب رعدية من تكساس وخليج المكسيك . وتطلع الناس الى السماء ، وكلهم أمل في سقوط الأمطار ، لكنها لم تسقط ، لقد دفعت الرياح السحب تجاه الشمال . واشتد هبوب الريح لتصاعد الغبار من الحقول . واستمرت الريح تعصف بشدة وبشكل متواصل فتطاير الغبار حتى ملأ السماء . ثم عصفت الريح بالقمح النامي .

وجاء يوم احتجبت فيه الشمس ، وبدت كقرص أحمر . حتى أن الرجال والنساء كانوا يربطون المناديل لحماية وجوههم عندما يخرجون . أما الليل فكان حالك الظلام ، لأن الغبار أخفى النجوم ، واغلقت البيوت أبوابها ونوافذها في وجه الغبار ، لكنه كان يتسرب ليحط على المقاعد والمناضد .

انتهت العاصفة وتركت الأرض في حالة موات . وفي الصباح كان الغبار يغطي القمح ، والأسوار والأسطح والأشجار . وخرج الناس من بيوتهم وهم يتنفسون هواء ساخنا . ووقف الرجال بجوار أسوار

مزارعهم صامتين يتطلعون الى محاصيلهم الميتة . وخرجت زوجاتهم ووقفن الى جوارهم ، يتطلعن الى وجوههم . ووقف الأطفال بالقرب منهم وأخذوا يتطلعون أيضـــا .

بعد فترة غدت وجوه الرجال جامدة وتكسوها مسحة من الغضب . فتيقنت النسوة أن كل شيء سيصير على ما يرام ، لأن الرجال لن يستسلموا هذه المرة . وعادت النسوة الى البيوت لاستئناف عملهن ، وعاود الأطفال لعبهم .

جلس الرجال خارج البيوت يراقبون الغبار الذي غطى الأرض كلها . ظلوا جالسين يخططون للمستقبل ، ويعدون أنفسهم لمعاودة النضال .

* * *

على الطريق السريع ، تهادت سيارة شحن حمراء كبيرة ، ثم توقفت بالقرب من أحد الطرق الفرعية الضيقة المهملة ، وقفز منها شاب وتوجه الى السائق .

قال : « شكرا لتوصيلك اياى ، مع السلامة » ثم استدار سائرا فى الطريق الفرعى .

فقال له السائق : « اتمنى لك حظا سعيدا » .

وزمجر صوت المحرك وانطلقت الشاحنة الحمراء مخلفة وراءها سحابة من الغبار .

كان الرجل الذى انطلق سائرا فى الطريق الفرعى القذر ، فى حوالى الثلاثين من عمره . عيناه بنيتان غامقتان جدا ، شفتاه مزمومتان بشدة ، يداه خشنتان من جراء العمل وذات اصابع غليظة واظافر قصيرة سميكة .

كان حذاء الرجل جديدا لكنه من النوع الرخيص . وايضا كانت بدلته جديدة ، لكنها من قماش رمادى خشن . كان طويلا وسترة البدلة فضفاضة عليه الى حد كبير ، فى الوقت الذى كان البنطلون قصيرا جدا . تطلع الى حذائه الاصفر الجديد ، ثم انحنى وفك رباط الحذاء ، وخلع الحذاء ، ثم السترة ووضعهما تحت ذراعه وواصل سيره على الطريق .

كان يمتد على جانبى الطريق سور من السلك الرفيع . تمتد خلفه حقول القمح التى عصفت بها الريح والحرارة . كانت الشمس وسط السماء وتفصد الرجل عرقا فابطأ فى سيره . ورأى امامه شجرة مكسوة بالغبار ذات ظل شاحب . وقف الرجل تحت ظلها للحظة ثم واصل سيره بسرعة تحت اشعة الشمس الصفراء .

كانت رائحة الغبار الحار تملأ الهواء . ثم انتهت حقول القمح ، وبدات حقول القطن باوراقها الخضراء الداكنة فى الظهور . كان لوز القطن قد بدا يتشكل ، والاوراق الخضراء الداكنة مغطاة بطبقة رقيقة من الغبار . كانت النباتات تقاوم اشعة الشمس من اجل البقاء .

كان الطريق القذر يمتد امامه ، وملأ التراب عينى الرجل . ثم افضى الطريق الى تل صغير صعد معه .

واصل الرجل السير . ثم مالبثت الشمس ان فقدت حرارتها ، لكن الهواء كان لايزال ساخنا جافا وعلى

الجانب الأيمن للطريق ، كان يوجد سور من السلك يحد حقول القطن . وأسرع الرجل فى سيره . انه يعرف ذلك السور ، فأبوه هو الذى أقامه منذ عدة سنوات مضت حول مزرعتهم (مزرعة عائلة جوود) ذات الأربعين هكتارا .

صعد « توم جوود » الى قمة التل ، ثم توقف . وألقى نظرة شاملة على المزرعة ، موطنه العزيز . لقد تهدم أحد أركان البيت الصغير ، وتداعت الأسوار ، ونما القطن فى الفناء الخلفى للبيت حتى حظيرة المواشى الخشبية تهاوت على جنب واحد ، ونما القطن المكسو بالتراب ملاصقا لها.

حملق توم لفترة طويلة .

ثم تذكر : « لا يوجد أحد هنا ، لابد أن شيئا ما قد حدث بالتأكيد » .

هبط من التل ، وتوجه الى مخزن الأدوات بجوار البيت وتطلع بداخله ، لم يعثر على أى أدوات . ورأى

علبة زيت قديمة مغطاة بالقذارة ، واثنين من الأوفرولات المهترئة معلقين على مسمار .

توجه توم ناحية البئر . ألقى بداخله حصاة وأخذ ينصت : قال بصوت عال : « لا يوجد به ماء . محتمل أنهم ماتوا جميعا . لكن كان لابد لأحد أن يخبرنى بذلك » .

كان الباب الأمامى للبيت الخشبى مفتوحا ، ولا يوجد أى أثاث فى المطبخ ولا أوان ولا أوعية ، تطلع توم جوود داخل غرفة النوم لا أسرة ولا مقاعد ، لا شيء سوى حذاء حريمى ملقى فى أحد الأركان . التقط الحذاء وأخذ يتفرس فيه .

قال : « انه حذاء أمى ، لكنه متهرىء . كانت أمى تحب هذا الحذاء . لقد رحلوا ، ولابد أنهم أخذوا معهم كل شيء » .

خرجت قطة نحيفة من الحظيرة ، وتوجهت ناحيته فى صمت وجلست .

سأل توم نفسه : « لماذا لم ترحل هذه القطة أيضا الى أى مكان فى الجوار . محتمل الا يكون هناك أحد فى الجوار . ربما رحلوا جميعا » .

أخذ توم يحملق عبر الحقول . فرأى رجلا طويلا يجوس خلال القطن ويثير سحابة عالية من الغبار ، وحملق توم فى وجه الرجل الطويل الشاحب . كان يعلو جبهته شعر أشيب أكرت . ويرتدى أوفرول وقميصا أزرق ، أما حذاؤه القماشى فقد كان بلون التراب .

نادى عليه توم : « بن ! المبجل كاسى ! هاى كاسى ! كيف حالك ؟ » .

فرد عليه كاسى بصوت عال : « ألست انت توم جود ـ ابن جوود العزيز ؟ » .

ـ انه انا أين أهلى ؟

ـ أين كنت يا توم ؟ لقد رحلوا ، الى ناحية « رانسيس » المزرعة القريبة التالية . رحل الناس

جميعا منذ عدة أسابيع ، عندما وصلت الجرارات ، كان أهلك ينوون البقاء هنا ، وتصدى لهم جدك بالبندقية ، لكن البندقية لم تستطع ايقاف الجرار . وهكذا رحلوا . لكن كيف لم تعلم بذلك ؟

أطرق الرجل ببصره الى الأرض وحرك قدميه العاريتين فى التراب .

ـ أنا لم أكن موجودا هنا منذ أربع سنوات . ألم تسمع بذلك ؟ كنت مسجونا ، لأننى قتلت رجلا . هاجمنى بسكين فضربته بالجاروف على رأسه . حكم على بسبع سنوات . لكنهم أطلقوا سراحى لحسن السير والسلوك . أهلى لم يكتبوا لى منذ سنين . ماذا ينوون أن يفعلوا ؟

ـ سمعت أنهم يفكرون فى الرحيل الى الغرب . والدك سيشترى سيارة . الناس يقولون ان الحياة ميسرة فى الغرب . يمكنك أن تقطف البرتقال مباشرة من على الشجر .

تطلع توم الى البيت المنهدم .

قال ببطء . عندما كنت أستلقي على سريري في السجن ، ليلة بعد ليلة ، كنت أفكر فيما سيكون عليه حالي عندما أعود الى هنا .

كنت متأكدا أن الحال لابد وان يكون قد تغير هنا ، لكن لم اتصور انه سيكون هكذا . على اى حال سأتوجه الى « رانسيس » في الصباح . ستأتي معي ، يا كاسي ، أليس كذلك ؟ فأمي دائما ما تتذكرك . وربما تذهب معنا الى الغرب . لكم يسعد أمي أن يكون الواعظ معنا .

قال كاسي : أنا لم أعد واعظا الآن . لكن على أي حال ، سأذهب معك . وعندما يقرر اهلك الرحيل سأكون معكم على الطريق .

قال توم : أعتقد أنه لابد وان نأخذ قسطا من النوم، لأننا سوف نتوجه الى « رانسيس » مبكرا صباح الغد .

قال كاسي : ليست بي رغبة في النوم . فلدي

الكثير لأفكر فيه . ولأنني الآن لست واعظا ، فلدي الكثير فعلا لأفكر فيه .

تمدد توم على ظهره ، وتطلع غالبا الى النجوم ، ثم تثاءب وغطى وجهه بسترته ، وتهيأ للنوم .

وبدأت حياة الليل تسري ببطء ، بدأت الحيوانات الصغيرة تخرج من جحورها. الفئران تمرح على الأرض، والأرانب البرية تتجه ناحية أي شيء أخضر ، والطيور الجارحة أخذت تحلق في هدوء فوق راسي الرجلين . ونام الرجلان .

الفصـــل الثــانى

الجــرارات والأرض

ما ان وصلت الجرارات الى كل ارجاء أوكلاهوما ، حتى تحتم على الناس ان يغـــادروا الأراضى . فى البداية جاء ملاك الأراضى • وتفحصوا الأرض اليابسة بأصابعهم • وراقب المزارعون (مســتأجرو الأرض) المشهد من خلف أبواب بيوتهم وكلهم تعاسة • ثم توجه الملاك بسياراتهم نحو افنية البيوت وتحدثوا اليهم من نوافذ سياراتهم ، ووقفت النســوة فى الخلاء وخلفهن الأطفال يراقبون الرجال وهم يتحدثون الى الملاك .

كان بعض الملاك عطوفا ، والبعض الآخر عنيدا شرسا ، لكنهم جميعا كانوا يتحدثون نفس اللغة .

ـ « البنك استولى على الاراضى . فهذه أرض مجدبة ، وأنتم تعرفون ذلك . ان الأرض تزداد جدبا وفقرا ، ويتطاير منها الغبار . كما ان زراعة القطن تضعف خصوبة الارض ، وتجعلها جدباء » .

طأطأ المستأجرون رؤوسهم . فهم يعرفون ذلك . لكن لو انهم بقوا فى الأرض لعام آخر ، فربما يكون عاما طيبا بالنسبة لهم .

قال الملاك : « نحن لا نستطيع أن نضمن ذلك ، فنحن مطالبون بسداد ديوننا للبنك » .

ثنى المستأجرون ابصارهم الى الأرض وقالوا : « ماذا تريدون منا ان نفعل ؟ نحن الآن على حافة الموت جوعا . الأطفال يتضـــورون جوعا طوال الوقت ، وملابسنا قديمة مهترئة » .

فأجاب الملاك : « ان نظام ايجار الأرض لن يكون ســاريا بعد الآن . ويجب عليكم كمزارعين صغار ، ان تغادروا الأرض الآن . فرجل واحد يملك جرارا ، يمكنه

ان يقوم مقام اثنتى عشرة أو اربع عشرة عائلة منكم . ونحن ندفع لمثل هذا الرجل أجرا ، اجرا محددا ، وناخذ المحصول كله . لابد أن نفعل ذلك .

ـــ « لكنكم ، ستغتالون الأرض بما فيها من قطن » .

ـــ « نعلم ذلك . لذا ينبغى علينا ان نجنى القطن قبل ان تموت الأرض . بعدها نبيع الأرض » .

ـــ « لكن ماذا ، بالنسبة لنا ؟ كيف يتسنى لنا ان ناكل ؟ » .

ـــ « لابد أن تغادروا الأرض » .

ـــ « لقد أخذ جدى هذه الأرض من الهنود . ولقد ولدت هنا . واطفالنا ولدوا فى هذا البيت . انها ارضنا ارضنا لأننا ولدنا فيها ، وعملنا فيها ، ومتنا فيها . وهذا ما يبرر ملكيتنا لهذه الأرض » .

ـــ « أنت على خطأ . الأرض ملك للبنك . ولابد ان ترحلوا » .

ـــ « لكن اذا رحلنا ، فالى أين نذهب ؟ وكيف ؟ وليس معنا نقود » .

ـــ « نحن آسفون . لأنكم تقيمون على ارض ليست لكم . لماذا لا تذهبون الى الغرب ، الى كاليفورنيا ؟ فهناك فرص للعمل ، والجو هناك لا يتسم بالبرودة أبدا . حيث يكثر الخوخ ، والكمثرى فى الربيع ، ثم القطن بعد ذلك . وهناك بعض المحاصيل فى كاليفورنيا تحتاج دائما الى من يقوم بجمعها . لماذا لا تذهبون الى هناك ؟ » .

أدار الملاك محركات سيارتهم وانطلقوا .

تساءلت النساء : « الى أين سنذهب ؟ الى أين سنذهب ؟ » .

ـــ « لانعرف ، لا نعرف ! » .

تحلق الأطفال حول النساء فى البيوت وتساءلوا :

ـــ « ما الذى ستفعله يا أماه ؟ والى أين سنذهب ؟ »

ـــ « نحن لم نعرف بعد . هيا ، اذهبوا ، والعبوا .

لكن لا تقتربوا من آبائكم . فهم يفكرون فى كثير من الأمور » .

* * *

ظهرت الجرارات فوق الطرق وفى الحقول . واثارت سحابات كثيفة من الغبار .

لم يكن الرجل الجالس على مقعد قيادة الجرار ، اشبه بالرجال العاديين . فقد كان يرتدى قفازا ، ونظارة واقية ، وقناعا من المطاط . كان بمثابة جزء من الجرار .

قاد الرجل الجرار دون هوادة عبر عشرات المزارع ، ولم يكن يهتم اطلاقا برؤية الأرض ، او يشمها او يستشعرها . لقد كان الرجل يحب الجرار ، وليس الارض .

عند الظهيرة ، توقف سائق الجرار . احيانا كان يتوقف بالقرب من بيوت المستأجرين ، فكان الأطفال الجائعون يندفعون لمشاهدته وهو يخرج الساندوتشات وياكلها .

* * *

سأله احد المزارعين : « كم تتقاضى مقابل هذا العمل ؟ »

ـــ « ثلاثة دولارات فى اليوم . لدى زوجة واطفال لابد ان تحيا ثلاثة دولارات يوميا تصرف لى نفس اليوم » .

ـــ « هل تعرف انه بسبب دولاراتك الثلاثة هذه التى تقبضها يوميا ، فان هناك خمس عشرة او عشرين عائلة لن تاكل اى شىء ـــ أى ان حوالى مائة شخص تقريبا لن يجدوا عملا بسبب دولاراتك الثلاثة » .

ـــ « شىء لا يهمنى . فالزمن يتغير . لم يعد هناك مجال للمزارعين الصغار هذه الأيام . اذهبوا الى مكان آخر ، وحاولوا كسب ثلاثة دولارات فى اليوم » .

انتهى سائق الجرار من تناول طعامه ، وقال : « من الأفضل لكم ان تتركوا الأرض سريعا . فسوف اقوم بتسوية المكان فيما بعد . لدى اوامر بذلك . واذا لم تغادروه ، فمن المحتمل ان اندفع بالجرار ناحية بيتكم ، واهدمه . وربما يدفعون لى اجرا اضافيا .

— « لكنني بنيت هذا البيت بيدي هاتين ، وإذا هدمته فسوف اقتلك ببندقيتي » .

— « لا فائدة من ذلك . لو انك قتلتني ، سيكون هناك رجل آخر فوق الجرار غدا » .

ادار السائق محرك الجرار وقام بعدة مناورات الى الامام والخلف ، ثم خرب احد الجدران ، فانهار جانب من البيت . ثم زمجر الجرار مبتعدا ، والمزارع يلاحقه وبندقيته في يده ، وخلفه زوجته . في حين كان الاطفال يقفون خلفها . وبدأ الجميع في مطاردة الجرار .

الفصل الثالث

عائلة جوود

استيقظ توم وكاسي عند الفجر ، وشرعا في السير على الفور . سارا في صمت ورائحة التراب تملأ انفاسهما .

وتبدت حمرة شروق الشمس في السماء وبدأت الطيور تغرد .

أخيرا قال توم : « انظر ، هاهي مزرعة « راتسيس » واسرع في سيره ثم قال : « ارجو ان يكون كل اهلي هناك . كما ارجو ان تكون امي . . . » .

في تلك اللحظة رأى الرجلان البيت ، وكان اشبه

بالصندوق غير المطلى ومجردا من اى شىء . وفى الفناء كانت توجد كومة من الأثاث ، أسـرة ، ومقاعد ، ومناضد .

قال توم : « يا الهى ، انهم على وشك الرحيل » .

كانت هناك سيارة نصف نقل تقف وسط فناء البيت ، شكلها غريب . كانت سيارة عادية فى يوم من الأيام ، أزيلت عنها مقاعدها الخلفية واستبدلت بأرضية خشبية على هيئة مستطيل لها جوانب ، لتصبح سيارة نصف نقل مكشوفة .

عندما اقترب الرجلان من المكان كانت الشمس قد طلعت . والقت بأشعتها على نوافذ البيت والأجزاء المعدنية للعربة .

قال توم : « لا تنادى عليهم . دعنا نفاجئهم » .

واسرع خطاه ، ثم عندما وصل الى الفناء أبطأ سيره . تطلع الى نصف العربة الأمامى ، التى كانت من قبل سيارة ماركة « هدسون سوبر سكس » .

كان «توم جوود» الأب يقوم بتحميل صندوق السيارة . استند توم على السيارة ، فتطلع اليه الأب للحظات ثم واصل عمله .

قال توم برقة : « ابى » .

فقال توم العجوز دون أن ينظر اليه : « ماذا تريد ؟ » .

كان يرتدى قبعة سوداء قذرة ، وقميصا أزرق وبنطلونا من الجينز القديم . كان رجلا نحيفا قويا ، ساقاه قويتان قصيرتان . له لحية بيضاء . ويتسم وجهه وعيناه باللون البنى .

رفع توم العجوز رأسه ودفع بها الى الأمام ليرى بوضوح أكثر .

وقال : « تومى ! لقد عاد تومى اذن ! »

وبدت على وجهه نظرة خوف وقال : « هل هربت من السجن ؟ لن يكون لك مكان لتختبىء فيه هنا ؟ » .

فقال توم : « كلا ، لقد أطلق سراحى لحسن السير والسلوك . وهاهى اوراقى » .

قفز توم العجوز فوق السيارة .

— « تومى نحن ذاهبون الى كاليفورنيا . كنت سأكتب لك خطابا . لكنك وقد عدت ، يمكنك أن تأتى معنا » .

ونظر الأب من فوق كتفه .

وقال : « هيا ، نفاجىء أمك ، لقد انتابها احساس كئيب بأنها لن تراك مرة ثانية . هيا نذهب ونفاجئها .

قال توم : « نتذكر بالطبع ، الواعظ كاسى ، يا أبى قابلته على الطريق » .

تطلع الأب بصعوبة الى كاسى وسلم عليه .

— « مرحبا بك هنا ، ياسيدى » .

قال كاسى : « انا سعيد لحضورى هنا ، وحمدا لله أن عاد ابنك الى موطنه » .

فقال توم العجوز برقة : « موطنه » ثم تطلع عبر الطريق للحظة ثم قال : « كيف ستخبر والدتك ، أنذهب اليها واقول لدينا ضيوف فى حاجة للانتظار » ؟

قال توم : « لا تفزعها » .

قال الأب : « هيا ، فأنا أريد أن أرى وجهها عندما تراك ، هيا بنا ندخل » .

كانت هناك رائحة خشب يحترق فى النار ، وكذلك رائحة لحم مشوى ، وخبز ، وقهوة ثقيلة ، خطا الأب الى الداخل ، ونظر توم الى امه . نظرت الى أعلى ، لكن الشمس كانت خلف توم . نهزت رأسها لملامح الشخص غير الواضحة ، القادم عبر البوابة » .

وقالت : « تفضلوا ، من حسن الحظ أننى صنعت مزيدا من الخبز هذا الصباح » .

كانت امرأة ثقيلة الوزن ، لكنها لم تكن بدينة ، وترتدى رداء طويلا فضفاضا ، قدماها الحافيتان عريضتان وقويتان ، وتتحرك بخفة اثناء عملها . شعرها أشيب ووجهها مستنير .

لم تكن عينا الام تتسمان بالحزن ، لكنهما عرفتا طريق الحزن والألم . كانت مركز العائلة القوى ، وهى تعرف ذلك . فطالما قامت بحماية الاســــرة من كل الاحداث الضارة التى كانت تقع لهم . ولو ان الام فقدت قوتها ، لتحطمت العائلة على الفور .

تقدم توم داخل الحجرة واتجه ناحية الفرن . اتسعت عينا الام وسقطت من يدها عصا الفرن على الأرض .

وقالت : « حمدا لله ، حمدا لله » ثم استبد الخوف بوجهها فجأة ، وقالت : « هل انت طارد ، يا تومى ؟ هل هربت ؟ » .

ــ « كلا ، يا امى . لقد افرجوا عنى ، لحسن السير والسلوك » .

اندفعت نحوه ، ووجهها ملــىء بالســعادة . وتحسست يدها الصــغيرة ذراعه ووجهه . عض توم شفته ، وما ان رأت الأم ذلك حتى ابتعدت فجأة .

قالت وهى تبكى : « كنا على وشك الرحيل دونك ».

التقطت عصا الفرن وعادت الى الفرن . اخرجت اللحم ، وضعت الأطباق .

قالت الام للأب : « اذهب سريعا لتخبر الجد والجدة بعودة تومى » .

ثم توجهت بالحديث الى تومى دون ان تنظر اليه وقالت : « تومى ، أود أن أسألك سؤالا ؟ أعتقد انك لا تكره كل الناس ، اليس كذلك ؟ لانهم لم يعلموك فيها اظن ، الكراهية داخل السجن ؟ »

قال توم ببطء : « كلا ــ كلا ، كنت لفترة ما مشاكسا ، لكنى بعد ذلك التزمت الهدوء واصبح كل شىء على ما يرام . انا لا اكره اى احد . لكن عندما رايت ما فعلوه ببيتنا .. » .

اقتربت منه الام .

وقالت : « تومى ، ليس فى استطاعتك مقاومة الملاك وحدك ، لانهم سيتصيدونك . لكننى اتصور وعنك آلاف من المشردين امثالنا ، طردوا من بيوتهم ــ لو اننا جميعا

ناومنا وقاتلنا ، فلن يكون باستطاعة الملاك أن يقهرونا . لكن الناس لا تعرف ماذا تفعل » .

قال توم : « أمي ، لم أسمعك تتحدثين على هذا النحو من قبل أبدا » .

كست وجهها مسحة من الصلابة . وقالت في هدوء : « لأنه لم يحدث لبيتي أن هدم على هذا النحو . ولم تضطرني الظروف أبدا لبيع كل حاجياتي » .

عادت الى الموقد ، وأخرجت الخبز ووضعته في طبقين من الصفيح راقبها توم للحظة ثم اتجه ناحية الباب .

كان الجد والجدة قادمين ووراءهما الأب . الجد في المقدمة ، وهو عجوز هرم . كان قد استيقظ لتوه من النوم ويحاول أن يثبت أزرار بنطلونه أثناء سيره ، وخلفه كانت تسير الجدة .

صاح الجد : « هاهو ذا ، لقد كان مسجونا لقتله رجلا . وهو على صواب في ذلك ، لقد نفذ ما كنت أود أن أفعله . أين الافطار ؟ »

قبل أن يهم الآخرون بالجلوس ، كان الجد قد تناول طبقه ، وامتلأ فمه بالخبز ومرق اللحم . وتطلعت الجدة بزهو ناحية توم .

طردت الأم الذباب بعيدا عن مرق اللحم ، وقالت : « ليس لدينا مقاعد كافية للجلوس عليها . فليأخذ كل منكم طبقه ويأكل أينما يريد في الفناء أو أي مكان » .

صاح توم : « تعال يا كاسي ، تعال لتأكل » .

انشغل الجميع في الأكل ، ولم يكن هناك مجال للمزيد من الكلام حتى نفد الطعام والقهوة . وعندما انتهى توم وأبوه من الأكل ، وضعا طبقيهما على الأرض واتجها ناحية السيارة نصف النقل .

رفع توم غطاء المحرك الضخم وأخذ يتطلع اليه ، ووقف الأب الى جواره .

ـ « أخوك « آل » فحص المحرك قبل أن نشتريها ، وقال انه على ما يرام » .

قال توم : « وماذا يعرف هو عن السيارات ؟ انما هو الا صبي صغير ؟ » .

ـ « كان يعمل باحدى الشركات . وكان يقود سيارة شحن العام الماضى . يعرف كل شىء عن محـركات السيارات . بالتأكيد « آل » يعرف » .

سـأل توم : « واين هو الآن ؟ واين روز اشارون ؟»

ـ « آل » ذهب الى المدينة ليبيع شيئا ، واخذ معه روث ووينفيلد . اما اختك فهى عند عائلة زوجها كونى . بالطبع لم تكن تعرف انها تزوجت . كونى شاب لطيف . وهى حامل الآن فى شهرها الرابع . وعلى مايرام » .

قال توم : « لكنها لاتزال طفلة . لقد وقعت كثير من الامور فى تلك السنوات التى بعدت فيها عنكم . متى تعتقد انكم سترحلون الى الغرب ، يا والدى ؟ » .

ـ « ربما نستطيع غدا او بعد غد . ولقد اخبرنى احد الاشخاص ان المسافة الى كاليفورنيا حوالى ألفى ميل . كلما اسرعنا فى الرحيل كلما كان ذلك افضل . فنحن ننفق نقودا طوال الوقت » .

سـأله توم : « كم معك من النقود ؟ فليس معى سوى دولارين » .

قال الاب : « يعنى ، قمنا ببيع بعض الاشياء وعملنا فى حقول القطن جمعنا مائتى دولار . دفعنا منها خمسة وسبعين دولارا ثمنا لتلك السيارة القديمة . يجب ان نتخلص من باقى الاشـياء المكومة فى الفناء ببيعها . وبالتالى يمكن ان يكون معنا حوالى مائة وخمسين دولارا عندما نبدأ الرحيل .

كانت الشمس قد ارتفعت فوق الرؤوس فى تلك اللحظة ، وارتسم ظل السيارة الأسود على الأرض . كانت تنبعث من السيارة رائحة زيت سـاخن ورائحة الطلاء . جذب الأب طرف قبعته اكثر فوق جبينه .

قال توم : « هيا نقوم بتحميل السيارة . ثم اذهب الى المدينة بالسيارة ، واعود بـ « آل » والطفلين . لقد تعلمت قيادة الشاحنات فى السجن » .

قال الاب : « عظيم . هيا بنا نبدأ . فلابد ان نرحل سريعا » .

الفصل الرابع

الاستعداد للرحيل

في وقت متأخر بعد الظهر ، عاد توم بالسيارة الى الفناء ، وآل يجلس الى جواره في كابينة السيارة ، بينما يقف الآخرون في الصندوق الخلفي . ورغم أن روث التي تبلغ الثانية عشرة ، وكذلك وينفيلد الذي يبلغ العاشرة ، كانا متعبين الا انهما كانا مبتهجين . أما روزا شارون فكانت تستند على زوجها « كوني » بحرص ، فقد كانت تفكر في طفلها ، وارتسمت ابتسامة على وجهها .

كان الحزن والغضب يعتور قلب الرجلين ، لأنهما

باعا كل شيء مقابل ثمانية عشر دولارا فقط ، رغم انهما يعلمان انها تساوي اكثر من ذلك ، لكن الحاجة الملحة للنقود أملت عليهما ذلك .

كان صوت المحرك عاليا . وعندما أوقف توم السيارة زعق صوت الفرامل . وقفز الأخوة من فوق السيارة ، ووقفوا يتطلعون الى اخيهم الاكبر توم ، الذي قتل رجلا . وقام كوني بمساعدة زوجته روزا شارون في النزول الى الأرض . ابتسمت واتجهت الى البيت للقاء امها .

بعد ذلك وبتلقائية وهدوء اجتمعت الأسرة عند السيارة . لقد أصبح هذا المكان من اكثر الأماكن اهمية، حيث تلتقي الأسرة . لقد حل الموات بالبيت والأرض ، في حين اصبحت هذه السيارة القديمة مركز الالتقاء الحيوي للعائلة . تمشى الأب حول السيارة . ثم جلس القرفصاء والتقط عصا صغيرة وشرع يرسم دوائر في التراب .

خرج الجد من البيت وجلس مستندا بعناية الى

جانب السيارة . فى حين جلس توم وآل وكونى فى صف مواز للأب مكونين نصف دائرة .

ووقفت النساء خلف الرجال ، واخذ الأطفال يداعبون التراب بأقدامهم دون جلبة . أما كاسى الواعظ ، لقد وقف بعيدا من الانظار خلف البيت ، لأنه لم يكن فردا من أفراد العائلة ، وهذا اجتماع عائلى .

خاطب الأب الجميع بصوت هادىء وقال : « ان كل ما لدينا من نقود ، هو مائة وخمسون دولارا . و «آل» يقول اننا فى حاجة الى اطارات جديدة للسيارة » .

تحدث « آل » ببطء وعناية ، لأنه لم يسبق له أن تحدث فى اجتماع عائلى .

ـ « السيارة قديمة ، ولا تبدو على ما يرام . لكننى فحصت كل جزء فيها قبل أن نشتريها . وهى من طراز منتشر ، وبالتالى يمكننا الحصول على قطع الغيار بثمن رخيص . وسوف يكون من السهل الحصول على الاطارات كذلك » .

قال توم : « لقد تعلمت شيئا عن ميكانيكا السيارات فى السجن . وكل ما قام به آل صحيح . والآن لدى شىء أود أن أقوله لكم ، كاسى ـ الواعظ ـ يريد أن يذهب معنا الى الغرب . وهو انسان طيب » .

قال الأب : « لكننى اتساءل ، هل بامكاننا ركوب السيارة جميعا ، والواعظ كذلك ؟ وهل فى امكاننا اطعام فم آخر ؟ هل يمكن يا زوجتى ؟ » .

قالت الأم بوضوح : « المسألة ليست » هل بامكاننا؟ بل « هل نحن على استعداد ؟ » ، وأنا أقول اننا على استعداد . فعائلة جوود لا يمكن أن ترفض تقديم الطعام أو ركوب السيارة لأى انسان يطلب ذلك » .

نهض توم ونادى : « كاسى ، كاسى ! » .

جاء كاسى بسرعة من خلف البيت وجلس القرفصاء مع الآخرين . لقد تم قبوله ليصبح واحدا من أفراد الأسرة .

قال الأب : « ينبغى أن ننهى كل شىء بسرعة ، استعدادا للرحيل . كلما أسرعنا كلما كان ذلك أفضل .

لهم يقولون أن المســـــافة الفا صل . يا له من طريق طويل ! » .

قال آل : « وما الذى ننتظره اذن . ليس هناك من شيء نفعله هنا . فلماذا لا نمضى ؟ يمكننا أن ننام فى الطريق » .

نهض الأب وقال : « ســـــنرحل الآن ، هيا نجمع حاجياتنا . فسوف يستغرق تحميل السيارة بضـــــعة ساعات . هيا ، يا رجال » .

كان الظلام قد حل فى تلك اللحظة . وبدأت دوائر من الأضواء المنبعثة من الفوانيس تتحرك فى الفناء . أحضر الرجال كل ما لديهم من أشياء ووضعوها بجوار السيارة .

أحضرت روزا شارون ملابس الأسـرة . واتجه توم الى مخزن الآلات وأحضر الآلات المتبقية . ثم ما لبثت روزا أن أحضرت بعض المراتب والبطاطين المتهرئة

دخل توم المطبخ يحمل فانوســه .

قال : « رائحة لحم ! » .

تطلعت الأم الى توم وابتسمت .

ــ « لابد أن تأكلوا شيئا أثناء السفر ! » .

قال توم : « ماذا تريدين أن آخذ من هنا ؟ » .

تطلعت الأم بسرعة فى أرجاء المطبخ . وقالت : « السلة ، بكل ما فيها من أدوات نستعملها فى تناول الطعام ، الأوانى الكبيرة والأوعية . خذ السلة . أما أنا سآخذ باقى الأشياء بعد أن أنتهى من اعداد الطعام » . والتقطت الأم الفانوس وسارت متثاقلة الى حجرة النوم .

قال الواعظ : « تبدو متعبة . ربما تكون مريضة » .

ما أن سمعت الأم كلماته ، حتى انفرجت تجاعيد وجهها ببطء . والتمعت عيناها وفردت أكتافها .

تطلعت فى أرجاء الحجرة ، ووضعت الفانوس على الأرض . ثم جلست بجوار صندوق صغير من الخشب ، وهو الشيء الوحيد الذى بقى فى الحجرة . داخل

الصندوق كانت توجد خطابات ، وصور فوتوغرافية ، وقصاصات جرائد ، وحلق وخاتم صغير من الذهب .

وضعت الأم الحلق والخاتم داخل مظروف ، دسته فى كيسها . وتطلعت الى الأوراق والصور لحظات . ثم وضعتها ثانية داخل الصندوق وأغلقته بعناية .

اتجهت الى المطبخ ثانية ووضعت الصندوق فوق النار ، توهجت النيران لعدة دقائق ، وتلاشى الصندوق .

* * *

هناك فى الفناء المظلم أكمل الأب وآل تحميل السيارة جعلوا الحمل مسطحا بقدر الامكان . وضعوا المراتب فوق الحمولة ، ثم ألقوا عليها بمشمع كبير وربطوه الى جسم السيارة .

قال آل : « لو حدث أن امطرت ، فسوف تضع الغطاء فوق الهيكل الحديدى لصندوق السيارة . ومن ثم يحتمى الجميع من البلل .

نظر آل الى والده وسأله : « هل أنت سعيد بالرحيل ؟ » .

ـ « نعم ، فالوضع هنا أصبح صعبا . وسيكون مختلفا هناك . فرص عمل كثيرة ، منازل بيضاء صغيرة نعيش فيها ، أشجار البرتقال تنمو فى كل مكان » .

ومع أول ضوء للنهار ، كان كل شيء قد تم . والطعام جاهز أيضا .

وقف أفراد العائلة أمام باب البيت يرتجفون قليلا وهم يأكلون بسرعة .

قال آل : « أعتقد انه يجب أن نوقظ جدتنا وجدنا » .

أصبح الضوء أكثر وضوحا الآن . فدخل توم البيت وعاد ومعه الجد .

وقال : « لم يكن نائما . أعتقد انه متوعك قليلا » .

قال الجد : « ليس بي أي شـــيء ، كل ما فـي الأمر ، أنني لن ارحل » .

قال الأب : « لن ترحل ؟ لماذا ، وكلنا على استعداد ؟ لابد أن نرحل ، فلم يعد لنا مكان نعيش فيه » .

قال الجد : « ولو ، ارحلوا انتم بدوني . صحيح أن هذا المكان سيء ، لكنه موطني . سأبقى هنا ، حيث انفي »..

قال الأب باحباط : « اصغ الى الآن ارجوك ، يا ابي .... » .

لمس توم كتف والده وقال له : « ابي ، تعال معي الى داخل البيت . فانا اود ان اقول لك شيئا ، وانت كذلك يا امي » .

سأله توم : « الديكم شيء من الويسكي ، يا ابي ؟ »

— « ولا قطرة » .

قالت الأم : « توم ، لدي نصف زجاجة دواء .

كنت أعطي منها لوينفيلد ، ليتلك عندما يصاب بألم في أذنيه . هل تفيد في شيء ؟ » .

قال توم : « ممكن . جهزي قدحا من القهـــوة الثقيلة ، ثم أضيفي عليها كل الدواء » .

وقف الجد عند مدخـــل البـــاب وقال : « أين انطاري ؟ » .

دخل الى البيت وشـــرب القهوة ، وبدأ يأكل . سرعان ما تثقلت رأســه ، وثبتت ذراعاه على المنضدة ، لقد استغرق الرجل العجوز في نوم عميق .

الآن اصبحوا على استعداد . وكانت الجدة قد ارتدت ملابسها ايضـــا . ووقفت العائلة تتطلع الى الأرض في ضوء الصباح الشاحب .

قال توم : « هيا ، نحمل الجد الى السيارة » .

رفعوا الرجل ، وعندما وصلوا الى الســـيارة ، صـــعد توم وال الى ظهرها ، وتناولا العجوز برقـــة وأرقداه فوق الحمولة .

قال الأب لزوجته : « أنت والجدة تجلسان فى كابينة السيارة مع آل لفترة . ثم نستبدل الأماكن فيما بعد » .

صعدوا الى كابينة السيارة ، بينما تسلق الآخرون ظهر السيارة واستقروا فوق الحمولة : كونى وروزا شارون والأب ، وروث ، ووينفيلد ، وكذلك توم والواعظ .

أدار آل محرك السيارة وتحركت عبر الفناء ومضت فوق التل الصغير ، فى حين كان الغبار الأحمر يثور من حولهم .

قال آل : « يالها من حمولة ثقيلة » .

حاولت الأم النظر خلفها فلم تستطع لأن الحمولة كانت تعوق الرؤية ، فاعتدلت فى جلستها ونظرت الى الأمام ، لكن عينيها كانتا مجهدتين للغاية .

كانت حقول القطن تحد الطريق . والسيارة تمضى ببطء عبر الطريق المترب ، باتجاه الطريق السريع المؤدى الى الغرب .

الفصل الخامس

الاتجاه غربا

كانت السيارة بحمولتها الثقيلة تمضى ببطء تجاه الطريق السريع عند « سالى سو » ثم انحرفت ناحية الغرب ، على الطريق المرصوف ، حيث قاد آل السيارة بسرعة خمسة وثلاثين ميلا فى الساعة . مروا بمدينة تلو مدينة والشمس تعلو رؤوسهم ، وفى نفس الوقت تزيد من حرارة التراب الأحمر بالحقول .

قاد آل السيارة عدة ساعات . توحد مع السيارة بحيث أصبح واعيا لأى صوت غير عادى يصدر عنها ، لأن ذلك يعنى أن هناك خللا ما . وكانت عيناه تتطلعان

الى الأمام ، ومن حين الى آخر ، تتوجهان الى لوحة المؤشرات أمامه .

قال آل : « صوت المحرك عال . أرجو أن تكون السيارة على ما يرام . لكن ما أخشاه الا تستطيع صعود التل بمثل هذه الحمولة . هل توجد تلال كثيرة فى المسافة بين هنا وكاليفورنيا ، يا أمى ؟ » .

قالت الأم : « سمعت أن المنطقة كلها تلال . بل جبال أيضا . جبال عالية . لا يمكن أن نعبرها بكل تلك الحمولة » .

سألها آل : « هل انت خائفة يا أمى من الذهاب الى مكان جديد ؟ هل تخشين الا يكون بنفس الصورة التى تخيلناها ؟ » .

ابتسمت عينا الأم وأخذت تفكر فى هدوء .

— « أنا لست خائفة الى حد كبير . فأمامنا فرص عديدة للحياة ، من الممكن أن نحياها ، لكن فى اللحظة الراهنة ، ليس أمامنا سوى الطريق والرحلة .

وسرعان ما يطلب الجميع الطعام . هذا كل ما افكر فيه » .

ارتفعت الشمس الى كبد السماء . وبدأ البخار يتصاعد من مبرد السيارة ازاء غليان الماء بسبب الحرارة .

اقتربوا من أحد الأكواخ على جانب الطريق أمامه مضختان للبترول ، وصنبور مياه وخرطوم . عندما توقف آل بجوار الخرطوم ، خرج رجل سمين غاضب من الكوخ .

سألهم : « هل تنوون شراء أى شىء ؟ أمعكم نقود ؟ » .

— « بالتأكيد معنا نقود . نحن فى حاجة الى وقود !

قال الرجل : « لابأس ، اذن . يمكنكم استخدام صنبور المياه . الطريق ملىء بالبشر . وعلى المرء أن يكون حريصا . يتوقفون هنا فقط ، لأخذ الماء او سرقة ، ولا يشترون أى شىء » .

امسك وينفيلد الخرطوم وشرب منه وصب ماء على راسه ووجهه .

واصل الرجل السمين كلامه : « لا ادرى ماذا جرى . كل يوم تمر بى خمسون أو ستون سيارة . الناس جميعا ينزحون الى الغرب . يحملون معهم كل متعلقاتهم . الى اين هم ذاهبون ؟ وما الذى يفعلونه ؟

قال توم : « يفعلون نفس ما نفعله نحن . يرحلون من مكان يعيشون فيه . يحاولون الحصول على عمل . هذا كل ما فى الأمر . وربما تصبح انت نفسك على الطريق ذات يوم » .

رفع آل غطاء المحرك ، واخذ يفحص زيت المحرك . ملأ الرجل السمين خزان الوقود . وزود توم مبرد السيارة بالماء من الخرطوم .

وعاد الجميع الى السيارة ببطء .

قال توم : « اصعد الآن يا ال الى ظهر السيارة سوف اتولى انا القيادة لفترة » .

قال آل : « لاباس . لكن راقب الزيت . وقد السيارة بهدوء ، فالحمولة اكثر من اللازم » .

ضحك توم . وقال : « ساراقب كل شىء . اطمئن » .

كانت الأم تجلس الى جوار الجدة فى كابينة القيادة اخذ توم مكانه وادار المحرك . وكانت الشمس فى طريقها للمغيب امام نواظرهم . فجذب توم طرف قبعته على عينيه .

وصلوا الى مدينة اوكلاهوما سيتى — وهى مدينة كبيرة . وواصل توم القيادة ، واستيقظت الأم واخذت تنظر الى الشوارع الفسيحة . كما اخذ باقى افراد الاسرة يتطلعون من على ظهر السيارة الى المتاجر الكبيرة والمبانى العالية والمبانى الحكومية . ثم بدا حجم المبانى يقل ، عندما أصبحوا عند حدود المدينة .

كان توم يقود السيارة ببطء وحذر داخل شوارعها المزدحمة ، حتى وصلوا الى الطريق السريع ٦٦ —

طريق الغرب السريع — فى الوقت الذى كانت فيه الشمس قد غابت .

كان الطريق السريع ٦٦ ، هو الطريق الرئيسى الذى يقطع أمريكا الى الغرب ، واتخذه الناس ممرا لهم . وهو طريق متميز خال من الجرارات والغبار ، وبعيد عن الفيضانات والرياح . كان الطريق ٦٦ هو الطريق الأم ، طريق الهروب .

قال توم : « سنظل نسير على هذا الطريق طوال رحلتنا » .

قالت الأم : « ربما يكون من الأفضل أن نجد مكانا نتوقف فيه قبل غروب الشمس . اذ يتحتم على طهى بعض اللحم وعمل خبز وهذا يتطلب وقتا » .

ثم قالت لتوم : « لقد أفرجوا عنك لحسن السير والسلوك ، أليس كذلك ؟ لكن ماذا يحدث لك عندما تعبر حدود الولاية ؟ أمن الممكن أن يعيدوك الى السجن ؟ هل اذا عبرت الحدود ، تكون قد ارتكبت جريمة ؟ » .

قال توم : « لا تخشى شيئا يا أمى . لقد فكرت فى ذلك . لو قبض على لارتكاب شىء ما — فمن الطبيعى أن يعيدونى الى السجن . واذا لم ارتكب خطأ ، فلن يحدث ذلك » .

عندما عبروا مدينة صغيرة فى طريقهم ووصلوا الى أطرافها ، أشار توم الى الأمام وقال : « هناك بعض الناس اقاموا معسكرا ! يبدو انه مكان جيد » .

أبطأ سرعة السيارة ، وتوقف على جانب الطريق .

كانت هناك سيارة قديمة تقف جانبا خارج الطريق السريع بجوارها خيمة صغيرة ، ويتصاعد الدخان من مدخنة موقد مثبت بجوار الخيمة . كان غطاء محرك السيارة مفتوحا ، وهناك رجل فى منتصف العمر يفحص المحرك . تطلع الى سيارة آل جوود ، وعيناه كلها قلق وغضب .

أطل توم من نافذة السيارة وقال : « أهناك ما يمنع من التوقف هنا أثناء الليل ؟ ولك كل الحق فى أن ترفض وجود جيران لك ، أو تقبل » .

ابتسم الرجل .

ـ « لا شيء يمنع بالتأكيد اخرج من الطريق ، وانا فخور بوجودكم » . ثم نادى : « سارى ، هناك بعض زملاء الطريق ، تعالى لتقابليهم » .

خرجت امراة ببطء من الخيمة بشرتها جافة ، وعيناها معتمتان من الالم . كانت صغيرة ونحيفة . لكن عندما تكلمت ، كان لها صوت جميل .

قالت : « اهلا بكم . مرحبا بكم ايها الناس الطيبون » .

الفصل السادس

وفاة الجد

ركن توم السيارة على جانب الطريق بجوار السيارة الأخرى . وهبطت الأسرة من فوقها بسرعة . بدأت الأم تعمل فى همة ، وفكت رباط حاجياتها وأنزلتها من فوق السيارة .

قالت للأطفال : « اذهبوا الى هناك واحضروا لنا ماء واذا صادفتكم اى قطع أخشاب فاحضروها فورا لنشعل بها نارا » . وانطلق الأطفال .

قال آل وهو يتطلع الى السيارة الأخرى : « أنتم

من كانســـاس ، ولستم من اوكلاهوما ، لأن لهجتكم مختلفة » .

قالت سارى : « قد تختلف لهجاتنا ، لكننا فى النهاية من بلد واحد » .

ودون سابق انذار بدأ الجد يبكى ، اندفعت اليه الأم واحاطته بذراعيها .

قالت سارى : « ادخلوه الى خيمتنا . بامكانه أن يستريح قليلا » .

ساعدت الأم الجد فى الدخول الى الخيمة . ثم خرجت ونظرت الى كاسى .

قالت : « الجد مريض . تعال والق عليه نظرة » .

كان الجد راقدا على ظهره . عيناه مفتوحتان ، ويحملق الى أعلى ، ووجهه أحمر ، ويتنفس بصعوبة .

وضع كاسى يده على جبهة الجد . وبينما كان يتطلع الى وجهه المربد اللون ، دخلت الأم .

قالت : « ماذا به ؟ »

ـــ « أعتقد انه سيصاب بنزيف فى المخ » .

صاحت الجدة خارج الخيمة : « اريد أن أراه . انه ليس مريضا ، لكنه متضايق بعض الشىء » .

خرج كاسى من الخيمة .

وقال : « انه ليس متضايقا ياجدة ، لكنه مريض . مريض فعلا » .

قالت الجدة : « لماذا لاتصلى من أجله اذن ؟ ألست واعظا ؟ » .

بدأ الجد يصارع الموت . وفجأة انتفض جسده ورقد ساكنا .

بدأ كاسى صلاته : « أبانا الذى فى السماء .. » .

وانبعثت من فم العجوز تنهيدة طويلة .

ـــ « انك يعـــــود ... بما قدمت يداه على الارض ... » .

صاحت الجدة : « آمين ! » .

وتوقفت القاسة .

ورد كاسى وهو يركع الى جوار : « آمين ! » .

اقتربت الام الجدة من الخيمة . وتحلقت الاسرة حولها تراقبها . وهى جالسة فى اعتداد . ثم فجأة رقدت على الارض وغطت وجهها بذراعيها .

قال الاب : « شكرا لكم ايها الناس الطيبون . فلقد ماتت فى خيمتكم » .

قال ويلسون : « يسعدنا مساعدتكم » .

قال آل : « سأقوم انا وتوم باصلاح سيارتكم » .

قال الاب : « يجب أن تتذكر انها ستدفنه بالجدة فليس معنا سوى مائة وخمسين دولارا » واذا ابلغنا بوفاته سوف يأخذون اربعين دولارا لدفنه » .

سأل آل : « وماذا سوف نفعل ؟ » .

قال الاب بهدوء : « سوف ندفن الجد هنا . ونكتب

بياناته فى ورقة نضعها فى زجاجة ندفنها معه . بيانات تفصح عنه ، ولماذا دفن هنا » .

احضر الرجال الادوات للحفر . وقام الاب بوضع علامة على الارض وقامت الام بغسل الجثة وكتب توم بياناته بعناية على قطعة من الورق .

عندما اصبح كل شىء جاهزا ، وقفت العائلتان حول القبر . والقى كاسى موعظة قصيرة .

وردد الجميع : « آمين » .

عادت النســـاء الى الخلف ناحية النار لاعداد العشاء . فى حين قام الرجال بردم الحفرة بسرعة .

ركعت روزا شـــارون بجوار النار وتطلعت الى أمها .

ـــ « انا مرتعبة يا امى ، هل ســـيؤذى ذلك الجنين ؟ »

قالت الام : « مرتعبة ؟ لابد ان تتماســـكى خلال الاشـــهر القادمة . انسى نفسك والجنين لفترة » .

عندما انتهى طهى اللحم والبطاطس ، جلست العائلتان على الأرض لتناول الطعام ، يخيم عليهم الصمت ويحملقون فى النار .

سألت الأم عائلة ويلسون : « كم مضى من الوقت، وأنت وعائلتك على الطريق ؟

قال ويلسون : « الحظ لم يكن حليفنا . لقد مضى علينا ثلاثة أسابيع ونحن على الطريق . السيارة أخرتنا، تسير وتتوقف حالتها تزداد سوءا بمرور الوقت .

قال آل : « أعتقد انه بإمكانى اصلاحها »

قال الأب : « يتعامل جيدا مع السيارات » .

ــ « بالتأكيد . انا ممتن جدا ، صحيح اننا نلاقى كثيرا من المتاعب فى ذهابنا الى كاليفورنيا ، لكنها تستحق . رأيت اعلانات عن احتياجهم لاناس لجمع الفاكهة ، بأجور عالية ايضا ، خلال عامين يمكن للانسان أن يشترى قطعة ارض ، ويصبح لديه مكان يملكه ... » .

قال الأب : « لقد رأينا هذه الاعلانات . معى واحد منها » « مطلوب عمال فى كاليفورنيا لجمع البازلاء . اجور جيدة طوال الموسم . مطلوب ٨٠٠ عامل » .

تطلع ويلسون فى الاعلان .

قال : « لم اقرأ هذا الاعلان . لكن ألا تعتقد أنهم ربما حصلوا على الثمانمائة عامل » .

قال الأب : « لكن هذا جزء صغير من كاليفورنيا . فهى الولاية الثانية من حيث الحجم فى أمريكا » .

اتجه توم وآل ناحية الرجلين .

قال توم : « كنا نفكر يا أبى ، بأن حمولة سيارتنا زائدة » .

فى حين أن سيارة ويلسون ليست كذلك . وبالتالى يمكن لبعض أفراد أسرتنا أن يركبوا معه ، ونأخذ نحن بعض حاجياتهم فى سيارتنا . وهذه الحالة يمكن

للسيارتين اجتياز منطقة التلال . على ان تسير السيارتان معا » .

قال ويلسون : « لم يبق معى سوى ثلاثين دولارا فقط . ولا أود أن أكون عبئا عليكم » .

قالت الأم : « ان تكون عبئا علينا ، لقد ساعدتنا عندما مات الجد » .

ابتسم ويلسون فى خجل واطرق ببصره الى الأرض .

قالت الأم الى سارى : « سوف تصلون الى هناك والآن هيا ، كى تنام قليلا » .

خبت النار ـ وعلى الطريق السريع كانت تمضى بعض السيارات القليلة ، والشاحنات التى كانت تحدث ضجة كبيرة .

سرعان ما هدأت العائلتان ، واستغرقتا فى النوم، فيما عدا سارى ويلسون التى ظلت راقدة متيقظة ، وعيناها مفتوحتان على سعتهما بسبب الألم .

الفصل السابع

تعطل السيارة

انطلقت العائلتان ، عائلة جوود ، وعائلة ويلسون بالسيارتين على الطريق متجهين نحو الغرب . اجتازوا حدود الولاية وتركوا اوكلاهوما خلفهم ، وساروا عبر تكساس .

بعد ثلاثة أيام أصبح الطريق السريع مأواهم غيروا أسلوب حياتهم تماما . وتدريجيا تعودوا على أسلوب حياتهم الجديد . كانوا يقطعون المسافات الشاسعة ميلا بعد ميل . حتى وصلوا آخر حدود تكساس . وطالعتهم نيو مكسيكو بجبالها .

كانت الجبال تقف شامخة على بعدة تناطح السماء . وعجلات السيارتين تدور وتدور تنهب الطريق ، والمحركات حرارتها تزداد ويتصاعد منها بخار الماء .

كان آل يقود سيارة عائلة ويلسون ، والى جواره تجلس امه ، تليها روزا شارون . وكان يحافظ دائما على المسافة بينه وبين السيارة الاخرى . كان الهواء ساخنا ، والجبال تتصدع من الحرارة .

كانت الام تجلس ويداها مطروحتان فى حجرها ، فى حين كانت روزا شارون تشد نفسها لتتفادى حركة واهتزاز السيارة ، ولا يشغل ذهنها سوى طفلها الذى لم يولد .

قالت روزا شارون : « امى ، عندما تصل الى هناك ، كونى مطمئنة ، فقد خطط كونى وأنا كل شىء . سوف يعمل كونى فى احد المحلات التجارية ، أو احد المصانع . كما سيدرس فن الراديو ، من منازلهم ، وبذلك يمكن ان يكون لديه محل خاص به . عمل لطيف

نظيف ومستقبله مضمون . سيكون لدى الطفل ملابس جديدة عند ولادته » .

قالت الأم : « نحن لا نريدكم أن تبتعدوا عنا » .

فى تلك اللحظة كان آل يجلس على مقعد القيادة متخشبا ، ويمسك عجلة القيادة باحكام ، فقد سمع بعض الفرقعة فى محرك السيارة . وكلما زاد السرعة زاد الصوت . ضغط على تغير السيارة وانتحى بالسيارة جانبا على الطريق .

وعلى الفور توقفت السيارة التى تنقل خلفها ببطء ، نزل توم من السيارة ونادى : « ماذا حدث يا آل ؟ » .

زاد آل من سرعة المحرك حتى جعله يزأر .

وقال : « انصت الى المحرك » . كان صوت الفرقعة عاليا وواضحا .

— « انه عمود الادارة ، اليس كذلك ؟ » .

قال توم : « يبدو ذلك » .

فسأل ويلسون : « هل ذلك أمر خطير ؟ »

قال توم : « نعم » .

انتاب آل نوع من الضيق . فقد اعتقد أن ما حدث للسيارة كانت نتيجة لخطئه .

فقال توم : « يجب ان نخرج عمود الادارة ونحصل على واحد جديد . ثم نقوم بتركيبه . سيستغرق ذلك يوما بطوله . وغدا الأحد ، لا يمكننا شراء أى شىء ، وليس معنا الأدوات اللازمة لعمل ذلك » .

قال ويلسون : « انها غلطتى ، فسيارتى القديمة هذه دائما ما كانت تسبب لى المتاعب . لماذا لا تمضون أنتم فى طريقكم ؟ وسأبقى انا وسارى هنا » .

خلع توم قبعته ومسح جبهته .

وقال : « لدى فكرة . كلما وصلنا الى كاليفورنيا بأسرع وقت ، كلما كانت الفرصة متاحة لكسب اسرع،

فسيارتك تسير ضعف سرعة السيارة النصف نقل ، فلنخفف حمل السيارة نصف النقل بعض الشىء وتنطلقون انتم ، وسأبقى هنا انا وكاسى لاصلاح السيارة ، ثم نلحق بكم » .

قالت الام بقلق : « وكيف سيتسنى لكما معرفة مكاننا ؟ » .

قال توم : « لا تشغلى بالك سوف نعثر عليكم . فكاليفورنيا ليست العالم أجمع » .

قال الأب : « لابأس . ومن الأفضل أن ننطلق الآن . فمن الممكن ان نقطع مائة ميل قبل حلول الظلام » .

خطت الام خطوتين لتقف امامه وقالت : « ان أذهب » .

وهنا توجه الأب تماما ، وقال : « ماذا تقصدين ؟ ومن ذا الذى سيرعى شئون العائلة ! » .

توجهت الأم ناحية السيارة والتقطت عصا رائعة

السيارة ، وامسكتها بيدها ، وزمت شفتيها فى غضب .

وقالت : « السبيل الوحيد لتحملني على الذهاب هو أن تضربني ، هيا ، حاول أن تفعل ذلك » .

تطلع الاب حوله وقد اسقط فى يده .

راقب الجميع الأب ، متوقعين ان يفقد اعصابه ، او أن يصرخ او أن يضربها . لكنه امسك اعصابه ولم يفعل . وتدلت يداه فى استسلام الى جانبيه . تيقن الجميع ان الام انتصرت . وتاكدت الام من ذلك ايضا .

قال توم : « ماما ، ماذا جرى لك ؟ »

قالت : « انت لم تفكر بشكل جيد . اما انا فقد فكرت . ما الذى بقى لنا فى هذا العالم ؟ لم يبق لنا سوى العائلة . النقود لن تكون ذات فائدة لو تشتتت العائلة . انا لا اخشى شيئا عندما نكون جميعا معا . وانا على استعداد لان اضرب اى احد بهذه العصا لو ان عائلتى تشتتت » .

قال توم بهدوء : « لكننا يا امى ، لا نستطيع ان نعسكر هنا . فلا ظل ولا ماء » .

قالت الام : « لاباس . نتحرك من هنا ونتوقف فى اول مكان يوجد به ظل وماء . بعد ذلك تعود السيارة نصف النقل وتاخذك الى المدينة » .

نظر اليها توم باستسلام .

ـ « لقد انتصرت يا امى .. دعى هذه العصا جانبا قبل ان تصيبى بها احدا . آل ، خذ الجميع بالسيارة حتى تجد مكانا تعسكر فيه . وربما تحاول فك عمود الادارة الليلة ، طالما اليوم هو السبت . ناولنى الادوات لابدا العمل » .

قبل ان تبتعد السيارة نصف النقل كان توم وكاسى قد شرعا سويا فى العمل فى السيارة القديمة .

بعد فترة تحدث كاسى الى توم « اتعرف . كنت طوال الرحلة اراقب الطريق . هناك مئات العائلات ـ متجهة نحو الغرب . هل لاحظت ذلك ؟

قال توم : « نعم ، اهل الولاية جميعا ، يرحلون » .

— « لكن ، من المحتمل الا يحصل كل هؤلاء الناس على عمل هناك ؟ » .

قال توم : « انا لا افكر فى ذلك الآن ، وانما افكر فى شىء واحد فقط ؟ » .

ثم وقف ، وقال : « اليس ذلك آل القادم نحونا ؟ »

توقفت السيارة نصف النقل بجوار السيارة الأخرى ونزل منها آل .

قال : « لدينا مشكلة ، فالجدة بدات تؤول وتتحدث الى الجد . لم تعد تعى اى شىء . لكننا وجدنا معسكرا ، مقابل نصف دولار فى اليوم . الجميع متعبون ومن الصعب أن نواصل المسيرة » .

اخرج آل حقيبة من الورق من على مقعد السيارة .

— « ارسلت امى لكما بعض الخبز واللحم ، كما احضرت لكما شيئا من الماء » .

قال كاسى : « انها لا تنسى احدا ابدا . سانتظر انا هنا ، فى حين تذهبان انتما الاثنان الى المدينة قبل ان يتأخر الوقت .

* * *

سمع كاسى صوت السيارة نصف النقل وهى عائدة . فخرج من سيارة عائلة ويلسون عندما كان آل يتوقف بالسيارة وقال : « لم أتوقع عودتكما بهذه السرعة ! » .

قال توم : « لقد حالفنا الحظ ، يمكننا الآن تركيب عمود الادارة » .

قام الرجال الثلاثة بالعمل سويا . ولحسن الحظ كانت قطعة الغيار مناسبة وتم تركيب باقى الأجزاء . وقام توم بربط الصواميل .

دلف آل الى السيارة وادار المحرك . وظل به حتى زار .

قال توم : « تمام ! ابطل المحرك . لقد نجحنا . فاين اللحم ؟ »

مسح الرجال الثلاثة ايديهم فى بنطلوناتهم واكلوا اللحم وشربوا ماء من الزجاجة .

قال توم : « هيا بنا الآن نذهب الى المعسكر . سأقود انا السيارة ، وانت السيارة النصف نقل يا آل » .

* * *

على ارض المعسكر كان يوجد بيت خشبى ، تتناثر حوله نصف دستة من الخيام تقف السيارات بجوارها .

كان صاحب المعسكر يجلس على كرسى امام البيت وبجواره فانوس ، اوقف توم السيارة على جانب الطريق وسار عبر البوابة . رأى مجموعة من المقيمين فى المعسكر يتحلقون حول ضوء الفانوس .

سألهم صاحب المعسكر : « اتريدون المبيت هنا ؟ » .

قال توم : « كلا . اهلنا هنا . ابى وامى » .

فقال صاحب المعسكر : « لو اردتم ان تعسكروا هنا ، فسيكلفكم ذلك نصف دولار » .

قال توم : « بإمكاننا أن ننام على جانب الطريق ولن يكلفنا ذلك شيئا » .

ــ « لدينا قانون يحرم النوم على الطريق فى هذه الولاية ، فاذا مر المأمور فسوف تقعون فى مشاكل » .

سأله توم : « بالمناسبة ، هل هو شقيقك ؟ »

ــ « كلا ، ليس شقيقى . كما اننى لا اقبل ان تكلمنى بهذه الطريقة » .

فقال توم : « كما انه ليس لك الحق فى اخذ نصف دولار منى كذلك » .

قال المالك فى صوت خفيض : « لكن ينبغى علينا جميعا ان نكسب عيشنا » .

جاء الأب وقال : « لقد كنا نعيش حياة كريمة .

كان لدينا مكان نسكن فيه حتى رحلنا . نحن لسنا مسافرين بغرض التنزه . نحن ذاهبون الى الغرب . لنحصل على أجور جيدة هناك » .

كان هناك رجل نحيف يرتدي ملابس رثة يحدق فى ابى . ضحك ضحكة غبية بصوت عال وقال : « من اجل جمع البرتقال ، او الخوخ ؟ » .

قال ابى : « سوف نقوم بأى عمل » .

ضحك الرجل ذو الثياب الرثة ثانية .

التفت اليه توم وقال له : « ما الذى يضحك فى ذلك ؟ » .

ـ « لان الجميع متوجهون الى كاليفورنيا . وانا عائد من هناك . لقد كنت هناك » .

التفتت كل الوجوه اليه بسرعة . وتسمرت اجساد الرجال فى مكانها .

قال الرجل : « انا عائد الى بلدى واعلم اننى

سأعانى من الجوع ـ لانه من الافضل لى ان اعانى الجوع فى بلدى على ان اعانيه فى أى مكان آخر » .

قال الأب بغضب : « لكن الاعلان الموجود معى يقول انهم فى حاجة الى مزيد من الرجال » .

قال الرجل : « لقد رأيت ذلك الاعلان . أن صاحب هذا الاعلان يطلب ثمانمائة عامل . لكنه طبع خمسة آلاف اعلان ، وربما قراه عشرون الفا » .

صاح الأب : « لكن ذلك شىء غير معقول ! » .

ـ « لكنه معقول بالنسبة للرجل الذى طبع هذه الاعلانات .. لانه استغل حاجة الناس الى الطعام . لذا لقد كان يقول لهم : « سادفع عشرين سنتا فى الساعة » . من الممكن ان نقول ان الفا قد توجهوا اليه . نصفهم لن يقبل القيام بمثل هذا الأجر . لكن الخمسمائة الآخرون فى منتهى الجوع . وسيقومون بالعمل حتى مقابل البسكويت . وكلما جاءه مزيد من الرجال الجوعى . كلما قل ما يدفعه من أجر » .

تلفت الرجل ذو الثياب الرثة حوله . واستطرد قائلا : « انا أقول لكم ما استغرق منى عاما حتى اكتشفته . ومات منى طفلان وزوجتى ؛ وانا الهث هنا وهناك ، لأحاول العثور على عمل . ليس من أجل النقود ، لكن لمجرد قليل من الطعام ليبعد عنهم الموت جوعا » .

استدار الرجل ذو الملابس الرثة ومشى ببطء واختفى فى الظلام .

لم يتفوه احد من الرجال الآخرين وبداوا يتفرقون بعيدا .

قال الأب : « تلك الرجل يقول الحقيقة » .

قال كاسى : « كان يحكى ما حدث له » .

توجهوا الى الخيمة . خرجت الام لملاقاتهم .

قالت : « الكل نائم ، حتى الجدة » .

ثم رأت توم فقالت له : « الم تقابلك اى مشاكل ؟» .

فقال توم : « لقد اصلحنا السيارة . ونحن على استعداد للرحيل في الصباح المبكر » .

قالت الام : « شكرا لله على ذلك . فانا اريد ان اصل الى هناك بسرعة . اريد ان ارى كل تلك الخضرة » .

تدخل الاب قائلا : « هناك رجل فى المعسكر يقول .. » لكن توم جذبه من ذراعه ليوقفه . وقال : « سنذهب الآن ، لننام على جانب الطريق لفترة قصيرة عمت مساء ، يا أمي » .

اخذ صاحب المعسكر الجالس على كرسيه يراقب توم وآل وكاسى وهم يخرجون من المعسكر من خلال البوابة ، ويدلفون داخل السيارة . التقط توم قطعة من الطين وقذف بها . فاصابت البيت الخشبى ، فقفز المالك ، يحملق بغضب فى الظلام .

الفصـل الثامن

كاليفورنيـــا

تحرك ركب العائلتين ببطء تجاه الغرب عبر جبال نيو مكسيكو . وصعدوا منطقة اريزونا المرتفعة .

كانت المياه نادرة في تلك المنطقـة وتحتم عليهم شراؤها . كانت قمم جبال أريزونا في مواجهتهم . ووصلوا الى منطقة الجبال ليلا ، وقادوا السيارتين طول الليل وعبروا القمة . واثناء هبوطهم ببطء كان النهار قد طلع ، فرأوا نهر كلورادو تحتهم . وتوقفوا فوق الجسر .

صاح الاب : « ها قد وصلنا .. نحن في كاليفورنيا ! » .

قال توم : « مازالت الصحراء أمامنا . وسرعان ما سنصل الى الماء ، ونستريح » .

جلسوا فوق السيارتين ، واخذوا يتطلعون الى مياه نهر كلورادو الصافية . كانت توجد احدى عشر خيمة بالقرب من الماء . فتوجهوا بسيارتهم الى مكان خال بالقرب من الخيام . ونزلوا من السيارتين ... وانطلق وينفيلد وروث ناحية الماء وسارا فيه ثم توقفا في هدوء .

قالت روث : « مازالت الصحراء أمامنا » .

— « ماشكل الصحراء ؟ »

— « لا أعرف . سوف نعبرها بالليل . وقد قال توم سوف نحترق لو عبرناها أثناء النهار » .

خلع الرجال ملابسهم بالقرب من الأشجار ، ونزلوا

الماء واستلقوا فيه وهم يشخصون بأبصارهم تجاه الصخور البيضاء لجبال اريزونا .

قال الأب فى زهو : « لقد عبرنا تلك الجبال ! » .

قال توم : « لكن مازالت الصحراء امامنا . سنحاول عبورها الليلة » .

ـ « على اى الأحوال . انا أود عبورها . فلم يبق معنا سوى اربعين دولارا . كم أود الحصول على عمل بأسرع ما يمكن » .

كان هناك رجل وابنه يسبحان فى الماء ثم جلسا . فتوجه اليه الأب يسأله برقة : « هل انت متوجه الى الغرب ؟ » .

ـ « كلا . لقد عدنا من هناك . نحن عائدون الى بلدنا . فى بلدنا يمكننا ان نعانى الجوع حتى الموت وسط اناس تعرفهم . نحن لا نريد ان نبقى فى مكان اهله يكرهوننا » .

قال الأب : « انت ثانى شخص اسمعه يتحدث على هذا النحو . اود ان اسمع المزيد عن ذلك » .

قال توم : « وانا كذلك . لماذا يكره اهل الغرب الوافدين ؟ »

نظر الرجل بحدة الى توم .

ـ « ألم تذهب ابدا الى كاليفورنيا ؟ » .

ـ « كلا ، على الاطلاق » .

ـ « اذن ، اذهب لترى بنفسك » .

قال توم : « سنذهب ولكننا نريد أن نعرف »

تكلم الرجل بعناية ودقة :

ـ « كاليفورنيا بلد جميل ، اجمل بلد رأيته فى حياتى . كلها بساتين واعناب ومجار مائية . انها بلد جميل لكنها ليست لكم . لو انكم زرعتم قليلا من القمح هناك ، فسوف تسجنون . والناس هناك يتطلعون اليك شذرا ويكرهونك ، لأنهم يشعرون بالذعر ، خشية ان يستولى احد منكم على اراضيهم . لم يطلق عليك بعد اسم اوكيى ! »

قال توم : « اوكيبى ! ماذا يعنى ذلك ؟ » .

ـ « أوكيبى » ، تطلق على الناس الوافدين من أوكلاهوما . وتعنى انسان سيىء ، قذر ، هناك ثلاثمائة مواطن من بلدى ، يعيشون عيشة الكلاب » .

اطرق توم ببصره ناحية الماء .

وقال : « لكن ألا يستطيع اى شخص أن يمتلك قطعة أرض ، بعد ان يكون حصل على عمل وادخر بعض النقود ؟ » .

ضحك الرجل :

ـ « لن يكون بامكانك الحصول على عمل دائم . سوف تناضل من اجل الحصول على عشائك كل يوم » .

سأله الأب بهدوء : « لكن أليس المكان هناك جميلا بأى حال من الأحوال ؟ » .

ـ « بالتأكيد ، جميل ان تنظر اليه ، لكن لا يمكنك الحصول منه على شىء . تنهار البرتقال الصفراء تملأ

الاشجار ـ والحراس المسلحون يقفون بالمرصاد وعلى استعداد لاطلاق النار عليك اذا لمست برتقالة واحدة » .

فقال الأب : « لكن اذا عمل الانسان بأقصى جهده .. » .

جلس الرجل فى مواجهته . وقال له : « اسمع ياسيد ، أنا لا احيط علما بكل شىء . فبامكانك الذهاب الى هناك ، وقد تحصل على وظيفة دائمة » .

تطلع توم الى والده .

وقال : « ما رايك يا ابى ؟ هل سنرحل الليلة ؟ »

ـ « يمكننا أن نرحل . وعندما نصل الى هناك نرى ماذا يمكننا ان نفعل . سأذهب لأنام قليلا » .

نهض الرجل وتبعه الآخرون ناحية الشاطىء . ومن عند الشاطىء راى الرجل وابنه آل جوود وهم يتجهون ناحية الخيام .

قال الابن : « كم أود رؤيتهم بعد مرور ستة أشهر .

* * *

كان الهواء ساخنا جدا فى الخيمة . والجدة مستلقية على الحشية . والام جالسة بجوارها ، تروح الهواء بقطعة من الكارتون ، أما روزا شارون فقد كانت تجلس فى الجانب الآخر تراقب امها . ثم تطلعت الى المرأة العجوز وقالت : « انها مريضة جدا » .

قالت الأم : « لقد حان موعدها . لكن لا تشغلى بالك بهذا الموضوع ياروزا شارون ، فانت سيكون لديك طفل » .

تنهدت الجدة ، ثم بدأت تتنفس بعمق شديد .

قالت الأم : « انها نائمة الآن . تمددى الى جوارها واستريحى ياروزا شارون » .

قالت الابنة بنوع من الشكوى : « انا لا ادرى أين كونى ، فأنا لم أره منذ فترة طويلة » .

قالت الأم : « شى . . شى . . استريحى الآن بعض الشىء » .

اغلقت روزا شارون عينيها . واسترخت الأم

واصبح المعسكر ساكتا . بعد ذلك سمعت الام وهى نصف نائمة صوت وقع اقدام .

ـ « من بالداخل هنا ؟ »

نهضت الام جالسة بسرعة . واطل عليها من باب الخيمة رجل ذو وجه بنى ، يحمل مسدسا فى وسطه وعلى صدره نجمة فضية كبيرة .

قالت الأم : « ماذا تريد ياسيد ؟ »

ـ « اين رجالكم ؟ من اين انتم ؟ »

ـ « نحن من " تيرساليسو " ، بولاية اوكلاهوما ، سوف نعبر الصحراء الليلة ، ياسيد » .

ـ « حسنا ما تفعلون . فنحن لا نريد احدا منكم هنا ، أيها الاوكيز » .

اربد وجه الام من الغضب والتقطت وعاء معدنيا .

وقالت فى هدوء : « أوكيز ؟ اوكيز ؟ انك تحمل سلاحا ياسيد ، لكننى لا أخشاك » .

استدار الرجل وقال وهو يمضى بعيدا : « لو بقيتم هنا غدا فسوف آخذكم الى السجن » .

امسكت الام دموعها . واعادت الوعاء ثانية الى الصندوق .

* * *

غربت الشمس ، لكن الجو كان لايزال حارا . اشعلت الام نارا وبدأت تسخن بعض الماء . تطلعت الى توم بينما هو عائد بعد ان نام نوما عميقا تحت الاشجار .

قالت : « لقد ارتعبت ياتوم . فقد حضر الى رجل بوليس وتحدث الى بطريقة سخيفة ، حتى كدت ان اضربه » .

قال توم وهو يبتسم : « يا الهى يا امى . فى المرة الاولى امسكت بيد رافعة السيارة ، والآن تحاولين ضرب رجل بوليس . ما الذى حدث لنا ؟ »

بدت الام فى منتهى الجدية وقالت : « لا اعرف .

ان رجل البوليس هذا يا توم يطلق علينا اوكيز . ويقول انهم لا يرغبون فى بقاء أحد من الاوكيز هنا » .

وضعت الام مزيدا من قطع الاخشاب فى النار ، وقالت : « لقد دعوت الله ان يحقق لنا الراحة ، وان نستقر فى مكان طيب » .

طلب توم من روث ان تذهب الى منطقة الاشجار لتستدعى الرجال ، حضر الرجال ومازال النوم فى عيونهم .

قال الأب : « ماذا حدث ؟ »

قال توم : « سنرحل ، قال رجل البوليس إنه ينبغى علينا أن نرحل ، امامنا ثلاثمائة ميل علينا أن نقطعها » .

اتجه ويلسون ناحية النار .

وقال : « لا يمكننا ان نرحل . فلابد لسارى أن تستريح . ولن يتسنى لها ان تعبر هذه الصحراء وتظل على قيد الحياة » .

قال توم : « رجل البوليس يقول انه سيقبض علينا لو بقينا هنا غدا » .

هز ويلسون راسه وقال : « سارى لن تستطيع الرحيل . يتبغى علينا أن تستريح حتى تسترد قواها . اذا كان ولابد أن يقبضوا علينا ، فليقبضوا علينا » .

التفت الى كاسى وقال : « سارى تريد أن تراك » .

قال الواعظ : « أمتأكد أنت ؟ » .

قام الرجال بتحميل السيارة ، ووضع كل شىء بعناية تامة . وملأت الجراكن بالماء .

قال توم : « ان السيارة ستكون بحاجة الى مزيد من الماء ، مع هذه الحمولة » .

قامت الأم بتفريق البطاطس المسلوقة فأكلها الجميع وهم وقوف .

بعد ذلك اتجهت الأم الى خيمة ويلسون وبقيت هناك لمدة عشر دقائق . ثم عادت تكسوها مسحة من الهدوء .

وقالت : « لقد حان وقت الرحيل » .

كانت الجدة ماتزال نائمة . فرفعوها بمرتبتها ووضعوها برفق فوق السيارة . .

أخرج الأب نقودا من جيبه وأشار الى البطاطس واللحم ، وقال لويلسون : « نريدك أن تأخذ الطعام وهذه النقود » .

فقال ويلسون : « كلا ، لن افعل ذلك » .

أخذت الأم النقود من الأب ووضعت اناء اللحم فوقها » .

وقالت : « هاهو مكانها . ان لم تأخذها فسوف يأخذها شخص آخر » .

قال توم : « يجب أن نرحل الآن . فالساعة قاربت على الرابعة » .

صعد أفراد العائلة الى صندوق العربة . وجلست الأم على قمة الحمولة بجوار الجدة . وجلس توم وآل والأب فى المقدمة ، أما الباقى ففى صندوق العربة .

قال الأب بصوت عال : « وداعا ياسيد وياسيدة ويلسون » .

لم يتلق ردا من الخيمة . أدار توم محرك السيارة . وبينما كانت العربة تسير ببطء على طريق وعر يؤدى الى الطريق السريع ، تطلعت الأم الى الخلف ، رأت ويلسون يقف أمام خيمته فى تلك اللحظة ويتطلع اليهم . لوحت الأم بذراعها ، لكنه لم يلوح لها بدوره .

* * *

فى آخر محطة لخدمة السيارات قبل الوصول الى الصحراء ، قام توم بشراء زيت ووقود للسيارة ، وتمم على اطارات السيارة ، وملأ مبرد المحرك بالماء .

كان هناك رجلان يعملان فى محطة البنزين أخذا يتطلعان الى العربة وهى تغادر المكان . قال أحدهما :

ـ « كم أكره أن أعبر الصحراء بسيارة تدبة مثل هذه » .

قال الثانى : « لانهم أوكيز ، أغبياء . ليسوا بشرا . فالبشر لا يمكن ان يتقبلوا العيش فى مثل هذه القذارة والبؤس » .

قال الأول : « نعم ، هم أغبياء . لأنهم لا يدركون خطورة عبور الصحراء على هذا النحو . لكن ما الداعى للأسف ؟ فهم ليسوا أناسا مثلنا بأى حال من الأحوال .

الفصـــل التاسع

عبـور الصـحراء

قطعت السـيارة الطريق الصاعد الى أعلى التل ، فوصلت الى قمته بينما كانت الشمس تسطع بأعلى السماء ، وانعكست أشعتها الصفراء على الصحراء الممتدة . وهكذا كانت تواجههم الجبال السوداء وضوء الشمس المبهر .

اوقف توم محرك السيارة عندما وصلوا الى بداية الصحراء الممتدة امامهم ، وانتظروا حتى برد المحرك .

غربت الشمس ، وسادت الظلمة خاصة تحت مظلة صندوق السيارة ، وشرع كل من كانوا فى الصندوق

يتحدثون همسا لفترة . واخيرا نام الجميع تبعا عدا الأم ، التى كانت ترقد بجوار الجدة وتستشعر دقات قلب المرأة العجوز .

قالت الأم اكثر من مرة : « انها ستكون على مايرام ، فلابد أن تعبر العائلة هذه الصحراء ، وأنتم تعرفون ذلك » .

بعد مرور فترة من الوقت ، كانت الجدة لاتزال ساكنة والأم ترقد بجوارها .

مرت ساعات الليل ، أحيانا كانت تمر بهم بعض السيارات المتجهة نحو الغرب ، وفى أحيان أخرى بعض سيارات النقل الضخمة المتجهة الى الشرق بهديرها المزعج . انتصف الليل تقريبا عندما وصلوا الى مدينة « داجانا » حيث توجد نقطة التفتيش ، بأضوائها البراقة ولافتة كتب عليها : « الزم اليمين وتوقف » .

خرج ضابط من نقطة التفتيش ، فسأله توم :

ــ « لماذا التفتيش ؟ » .

— « انه تفتيش زراعى ، لابد ان نفتش امتعتكم — لنرى اذا كان معكم اى خضروات او حبوب . لابد من انزال الحمولة » .

نزلت الام من فوق صندوق السيارة وعيناها فى منتهى القوة والصلابة وقالت وهى تغالب دموعها : « سيدى ، معنا سيدة عجوز مريضـــة ، ولابد من عرضها على طبيب فى اقرب فرصة ، وانت لن ترضى ان تعطلنا . اقسم لك ، ليس معنا اى شىء من ذلك ، والجدة فى حالة سيئة جدا » .

وصعدت مرة اخرى الى صندوق السيارة .

وقالت له : « انظر » .

وجه الضابط ضوء كشافه الى وجه المرأة العجوز وقال : « انها مريضة فعلا ، مع السلامة يمكنكم العثور على طبيب فى المدينة التالية » .

استأنف توم القيادة ، ثم توقف فى المدينة التالية واتجه الى صندوق السيارة . فقالت الأم : « انها على مايرام ، واصل القيادة لابد ان نعبر هذه الصحراء » .

هز توم راسه وعاد ثانية .

قال لأخيه آل : « لا أعرف ماذا حدث لأمى . تارة تقول ان الجدة فى حالة سيئة جدا ، وتارة اخرى تقول انها على ما يرام . أنا لا افهمها » .

قال الأب : « أمك هكذا منذ ان كانت فتاة صغيرة فتاة برية ، لا تخشى اى شىء » .

❋ ❋ ❋

تولى آل قيادة السيارة بسرعة منتظمة عبر تلك الظلمة الساخنة ، الى ان كشفت اضواء الفجر عن جبال الغرب العالية . قاموا بتزويد السيارة بالوقود والمياه فى مدينة « موجاف » ثم واصلوا السير عبر الجبال .

قال توم : « يا للمسيح ، لقد عبرنا الصحراء . عبرنا الصحراء » .

قال آل : « كنت فى منتهى التعب ، حتى اننى لم الحظ ذلك » .

سطعت الشمس من خلفهم ، وفجاة راوا واديا عظيما تحتهم . ضغط آل على الفرامل واوقف السيارة على الطريق .

قال : « انظروا ! » .

كانت مزارع الكروم والخوخ تمتد على طول الوادى الفسيح ، بلونها الأخضر الجميل . كذلك كانت توجد بيوت المزارعين وصفوف من الأشجار .

تنهد الاب وقال : « لم ار فى حياتى شيئا مثل ذلك من قبل » . ونادى على الأم قائلا : « تعالى وانظرى ، لقد وصلنا ! » .

نزلت روث وويتفيلد من فوق السيارة بصعوبة .

همست روث قائلة : « انها كاليفورنيا ! » .

هبط الآخرون ووقفوا خلفهم .

قال توم : « اين أمى ؟ اريدها ان ترى ذلك المنظر . تعالى يا أمى ، انظرى ! » .

هبطت الام من فوق صندوق السيارة ببطء . كانت راسها متصلبة ، وعيناها حمراوتين مجهدتين .

قالت الام : « تقول اننا عبرنا الصحراء » .

اشار توم الى الوادى العظيم .

ادارت الام راسها وقالت : « شكرا لله ، أن وصلت العائلة الى هنا » .

وفجاة انثنت ركبتاها وجلست على الارض .

ـــ « أنت متعبة يا أمى ، الم تنامى جيدا ؟ » .

ـــ « كلا » .

ـــ « هل حالة الجدة سيئة ؟ » .

ـــ رفعت الام عينيها وتطلعت عبر الوادى .

ـــ « لقد ماتت الجدة ! » .

تطلع الجميع اليها ، وسالها الاب : « متى ؟ » .

ـــ « قبل أن يوقفونا ليلة امس » .

قال توم : « كان ذلك اذن السبب فى عدم رغبتك فى تفتيشنا » .

قالت الأم : « كنت اخشى الا نستطيع عبور الصحراء . قلت للجدة انه ليس فى استطاعتنا عمل شىء لمساعدتها . ولا يمكن أن نتوقف فى الصحراء . ينبغى علينا أن نفكر فى الصغار ، وطفل روزا شارون المرتقب ! » .

امسكت الأم راسها بيديها وغطت وجهها للحظة ثم قالت : « لقد اتيحت لها الفرصة لكى تدفن فى مكان اخضر جميل » .

تطلع الجميع الى الأم ، وهم مندهشون من قوتها وصلابتها .

قال توم : « يا للمسيح ، اذن فقد كنت ترقدين الى جوارها طوال ليلة امس » .

ثم اتجه ناحيتها ليضع يده على كتفها .

قالت الأم : « لا تلمسنى . هل بامكانى ان اجلس فى المقدمة »

لا اريد ان اركب فى مؤخرة السيارة بعد ذلك ، انا متعبة بشكل بشع » .

صعد الآخرون الى صندوق السيارة ، وجلسوا على مبعدة من الجسد المتخشب المغطى .

همست روث : « هذه هى الجدة ، ولا حياة فيها ، ميتة ! » .

ركب توم والاب والأم فى المقدمة . وبدأت السيارة تهدر بحمولتها الثقيلة تجاه الوادى الذهبى الأخضر .

قالت الأم : « انه رائع ، كنت أتمنى أن يروه » .

تتبعت السيارة الطريق الملتوى الهابط من الجبال .

قال توم : « اعتقد انه ينبغى علينا أن نتوجه الى مكتب الصحة أينما وجد . لابد ان ندفنها بشكل قانونى سليم . كم بقى معك من نقود يا ابى ؟

قال : « حوالى ، اربعين دولارا » .

ضحك توم : « نحن بالتأكيد لم نحضر معنا شيئا » .

استمر فى الضحك لبرهة ، ثم اصبح وجهه جادا وجذب قبعته فوق عينيه .

واخذت السيارة تهبط على الطريق الجبلى فى اتجاه الوادى الأخضر .

الفصل العاشر

رد فعل كاليفورنيا

كانت كاليفورنيا منذ زمن بعيد ملكا للمكسيكيين ، ثم جاء الامريكيون وكلهم نهم لامتلاك الارض . واستولى الامريكيون على الارض بالقوة ، وقاموا بحراستها بالسلاح . ولم يكن المكسيكيون بالقوة التى يستطيعون بها استرداد اراضيهم . وهكذا عاش الامريكيون على هذه الأرض واستقروا فيها وانجبوا اولادهم ، واصبحوا ملاك الأراضى .

بعد فترة من الزمن نسوا نهمهم الأول لامتلاك الأراضى ، ولم يعد حب امتلاك الأرض يستحوذ عليهم

وحل محله حب المال ، فتحول المزارعون الى اصحاب محلات تجارية ثم الى رجال اعمال . وتملك رجال الأعمال هذه الأراضى ، لكنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عنها . لدرجة أن الكثير منهم لم ير الارض التى كان يمتلكها ، ولا المحاصيل وهى تنمو .

وعندما فقد المزارعون الصغار من كنساس وتكساس واوكلاهوما اراضيهم نزحوا الى الغرب . وعبر الجبال أكثر من مائتى ألف مشرد وجائع ، تزايد عددهم فيما بعد .

كانوا جوعى شرسين ، ويأملون فى العثور على مأوى ، لكنهم لم يلقوا سوى الكراهية . واطلق عليهم الاوكيى ، نظرا لكراهية أصحاب الأراضى لهم . كان الملاك مرفهين والاوكيى خشنين ، كان الملاك يتغذون جيدا ، فى حين يتضور الآخرون جوعا .

كان أصحاب المحلات التجارية يكرهون الاوكيى أيضا ، لعدم وجود نقود معهم يصرفونها . كان كل

ما يفكر فيه الأوكيى أمرين فقط ، الأرض والغذاء ، لذا فقد كرههم أهل كاليفورنيا لهذا السبب .

كان الرجال الجوعى يقودون سياراتهم خلال مزارع البرتقال ، ولايستطيع أحد منهم أو أطفالهم أن يأكل برتقالة بسبب الرجال المدججين بالسلاح الذين يحرسون المزارع . لم يكن معهم نقود ، ولا يستطيعون الحصول على عمل ، فأين يمكن أن ينام كل هؤلاء ليلا ؟

وعلى ذلك تم اجبار الأوكيى للعيش فى الخيام خارج اطار المدن وبالقرب من مجارى الماء ، واحيانا كانوا يقيمون عششا من الكارتون . وأثناء النهار يبحثون عن عمل ، ويجلسون أثناء الليل يتحدثون . لم يكن هؤلاء الناس مسلحين ، لكنهم كانوا خطرين ، فقد عرفوا ما كانوا يريدونه ، وبالتالى كان أهل كاليفورنيا يخشونهم .

وهكذا أحرق أهل كاليفورنيا معسكرات الأوكيى .

قال أهل كاليفورنيا : « ان معسكراتكم هذه خطرة .

تنتشر منها الامراض ، ولدينا اوامر بطردكم من هنا . بعد نصف ساعة سوف نضرم النار فى المعسكر » .

خلال نصف ساعة ، كان الاوكيى يسيرون على الطرق مرة ثانية ، بحثا عن معسكرات اخرى . ورغم ذلك ظلت الجرارات فى اوكلاهوما وكانساس وتكساس تحمل الناس خارجها . كان هناك ثلاثمائة الف مهاجر فى كاليفورنيا والمزيد آت على الطريق .

كان اهل كاليفورنيا يخشون امكانية بزوغ قائد او زعيم لهؤلاء الثلاثمائة الف . فاستخدموا كل السبل الممكنة لتحطيم وتفرقة المهاجرين لانهم كانوا على يقين تام بانه سيأتى يوم يتوقف فيه المهاجرون عن الكلام وعن التوسل الى الله لاطعام اطفالهم . ويشرعون فى القتال . وستكون تلك هى النهاية .

الفصل الحادى عشر

البحث عن عمل

فى المدينة التالية ـ بيكرز فيلد ـ توجه الاب والام الى مكتب الصحة . بعد ذلك حملوا جسدها الملفوف الى الداخل ، وظل باقى افراد العائلة بالسيارة فى الحر .

خرج الاب والام بسرعة جدا .

قالت الام : « لقد بذلنا غاية ما فى جهدنا من اجل الجدة ، لكى تدفن بشكل مناسب . والآن ينبغى علينا ان نواصل سيرنا ، ونبحث عن مكان نبقى فيه ، حتى نحصل على عمل ونستقر » .

سأل توم : « الى اين سنذهب ؟ »

قال الاب : « الى المعسكر . قد السيارة تجاه الريف » .

بجوار جسر خارج المدينة وجدوا المعسكر — وهو مجموعة من الخيام ، عددها اربعون ، وكذلك بعض عشش الكارتون . وبجوار كل خيمة او عشة يوجد جرار او سيارة قديمة .

اوقف توم السيارة ونظر الى والده .

وقال : « ليس على ما يرام . اتود أن نذهب الى مكان آخر ؟ » .

قال الاب : « لا نستطيع ان نذهب الى اى مكان آخر الآن . ينبغى علينا أن نحصل على عمل اولا » .

قالت الام : « هيا ننصب الخيمة . انا منهكة تماما . وحتى نستريح جميعا » .

ساعد توم والاب بقيتهم فى رفع غطاء السيارة

الى منطقة الخيام تحلقت حولهم دائرة من الأطفال يرقبون استقرار عائلة جديدة .

اتجه توم ناحية شاب يقوم باصلاح سيارة . ورأى الخيام القذرة ، واوانى الطبخ السوداء والسيارات القديمة .

ساله توم : « الا يوجد عمل ؟ »

— « لا توجد محاصيل فى الوقت الحالى . لم يحن موعد قطف العنب ، وبعده يحن موعد جمع القطن .

قال توم : « عندما كنا فى بلدنا ، اعطانا بعض الزملاء اعلانات جاء فيها ، انهم فى حاجة الى اناس كثيرين لجمع المحاصيل » .

ضحك الشاب .

— « يقولون ، انه يوجد هنا ثلاثمائة الف ، بناء على هذه الاعلانات » .

قال توم : « لكن لماذا يوزعون مثل هذه الاعلانات طالما هم ليسوا فى حاجة الى ايد عاملة ؟ » .

قال الشاب : « اسمع ، لو انك صاحب عمـــل ، وتقدم اليك شخص واحد ، فلابد ان تدفع له ما يطلبه . لكن اذا كان هناك مائة رجل ، وكل منهم لديه اطفال ، فسوف ، فسوف يتقاتلون كلهم للحصـــول على ذلك العمل . آخر عمل قمت به كانوا يدفعون لى خمســـة عشر سنتا فى الساعة ، وحتى تصل الى هناك يجب ان تستعمل سيارتك وتستهلك وقودا . هذا هو ما عليه الحال » .

قال توم : « لكنى رأيت بعض المحاصيل النامية ، وحان موعد قطافها » .

قال الشاب : « هذا صحيح . محصول الخوخ مثلا . هم فى حاجة الى ثلاثمائة الف رجل لمدة اسبوعين عندما ينضج المحصول . وبعد الانتهاء من جمع المحصول لن يكونوا فى حاجة اليك ، وبالتالى يطـــردونك ، ويبعدونك عن المنطقة . هذا هو ، ما عليه الحال » .

قال توم بغضب : « لكن اذا اضرب العمال عن

جمع الخوخ وتركوه حتى يفسد ، اعتقد انهم فى هذه الحالة سوف يدفعون الأجر المناسب » .

ابتسم الشاب وقال : « لقد فكروا فى ذلك . لكن المشكلة انه ينقصهم قائد أو زعيم لتنفيذ هذا الكلام . وعندما حدث ونفخ شخص فمه لأول مرة بمثل هذا الكلام قبضوا عليه ووضعوه فى السجن » .

خلع توم قبعته وبرمها بين يديه . وقال : « لذا فاننا نقبل ما يتوفر لنا من عمل ، والا متنا جوعا ، واذا شكونا من ذلك نموت جوعا ايضا » .

اجاب الشاب : « نعم ، والأمر لا يتوقف عند ذلك الحد بل ان البوليس عندما يمر بالمنطقة يتعامل معنا بقسوة . تذكر دائما اننا اغبياء .. لأننا من الأوكيين » .

* * *

داخل الخيمة استلقت روزا شارون على المرتبة وجلس الى جوارها زوجها كونى ، وعيناه غاضبتان متجهمتان .

قال : « لو كنت أدرك أن الأمور ستصبح على هذا النحو ، ما كنت جئت الى هنا ، وواصلت دراستى فى ميكانيكا الجرارات ، ولكنت حصلت على ثلاثة دولارات نظير قيادة جرار .

بدت روزا شارون فى منتهى الحزن والأسف .

قالت : « بل سوف تدرس ما يختص بالراديو . لابد أن تفعل ذلك ! لابد أن يكون لنا بيت قبل أن يأتى الطفل . لن يولد هذا الطفل ونحن لانزال فى تلك الخيمة ! » .

قال : « بالتأكيد ، سوف أدرس . لكن ربما كان من الأفضل لو بقينا فى بلدنا ودرست ميكانيكا الجرارات .

خرج من الخيمة ، واستدارت روزا شارون لتستلقى على ظهرها وشرعت فى البكاء فى صمت .

حول النار التى أوقدتها الأم ، التف الأطفال واستطاعوا أن يشموا رائحة الطعام المسلوق .

قالت إحدى البنات بأدب : « أستطيع تكسير بعض الأخشاب لك » .

رفعت الأم بصرها عن الوعاء .

قالت : « أتودين أن ندعوك الى الطعام ؟ »

قالت البنت الصغيرة : « نعم ، نعم ! » .

تطلعت الأم الى البنت الصغيرة فى أسى وسألتها :

« منذ متى أنت وأهلك فى كاليفورنيا ؟ » .

ـ « منذ حوالى ستة أشهر . عشنا فى معسكر الحكومة لفترة . ثم ذهبنا شمالا ، وعندما عدنا كان المعسكر ممتلئا . والحقيقة ، هو مكان متميز جدا ياسيدتى .

سألتها الأم : « أين يوجد ؟ » .

ـ « بالقرب من ويدباتش » . به دورات مياه وحمامات نظيفة . يمكنك غسيل الملابس بواسطة صنابير للمياه . الموسيقى تعزف مساء كل يوم سبت ،

وتتفسس الناس فى الرقص ، أتمنى لو استطعنا العيش هناك ثانية » .

قالت الأم : « لابد أنه يكلف كثيرا » .

ــ « أجل ، يكلف ، لكن اذا لم يكن معك نقود ، فلابد أن تعملى » .

قالت الأم : « بالتأكيد ، أتمنى أن نذهب الى هناك » .

توجه آل الى الرجل الذى كان يصلح السيارة .

قال له الرجل : « لقد تحدثت الى زميل منذ برهة مضت ، هل هو معك ؟ » .

ــ « أجل ، انه أخى توم . من الأفضل أن تعامله بلطف ، فقد قتل شخصا ذات مرة » .

ــ « لكنه لا يبدو كقاتل » .

ــ « فعلا ، فتوم هادىء ، لكنه لا يسمح لأحد أن يتطاول عليه » .

أطل آل داخل الموتور القديم . وقال : « أتود منى أن أساعدك ، فأنا لا أستطيع أن أمنع يدى عن محرك سيارة » .

قال الرجل : « شكرا ، كم أود ذلك . اسمى « فلويد نولز » .

ــ « وأنا آل جوود » .

قال فلويد : « مضى على هنا ستة أشهر . بحثت خلالها عن كل أنواع العمل . عندما تنتهى من اصلاح هذه السيارة ، سوف تغادر هذا المكان ، فهناك عمل فى الشمال » .

ــ « آل ! » .

تطلع آل الى وينفيلد الذى كان يقف الى جواره بنوع من الفخر .

ــ « آل ، أمى تضع الطعام فى الأطباق ، وتقول لك تعال لتأكل » .

قال آل : « سأحضر حالا » . ثم قال لفلويد : « نحن لم ناكل اليوم . سأساعدك فيما بعد » .

تطلعت الأم بيأس الى آل وهو قادم . وكان هناك مجموعة من الأطفال تتحلق حول النار ووعاء الطعام .

قالت الأم : « لا ادرى كيف اتصرف ــ يجب على ان اطعم افراد العائلة . لكن لا اعرف كيف اتصرف مع كل هؤلاء الأطفال ؟ »

تحدث توم مع الأطفال . قال لهم : « هيا انصرفوا الآن . فليس هناك من الطعام ما يكفى لكم » .

وضعت الأم الطعام فى اطباق من المعدن لافراد الأسرة .

ثم قالت : « ليس هناك الكثير . خذوا اطباقكم وادخلوا الخيمة ، سأترك هؤلاء الأطفال يلعقون وعاء الطهى » .

اندفع الأطفال لاحضار قطع من الخشب العريض أو الملاعق . وذهبت الأم الى الخيمة ، ومن داخلها

استطاع افراد الأسرة سماع الأطفال وهم يأكلون ما تبقى فى وعاء الطهى . وتركوا الوعاء فارغا على الأرض .

قالت الأم : « لن اعود لفعل ذلك مرة اخرى . ينبغى ان ناكل بمعزل عنهم » .

نهض آل واقفا وقال : « يجب أن اذهب لمساعدة ذلك الشاب فى اصلاح سيارته » . ذهب وعاد بعد عدة دقائق .

نادى آل على توم قائلا : « تعال معى » . واخذ توم معه حيث السيارة القديمة .

وقال : « هذا الرجل اسمه « فلويد نولز » . فناديه فلويد » .

قال فلويد : « سيكون هناك عمل فى الشمال » .

سأله توم : « اى نوع من العمل ؟ وكم يبعد عن هنا ؟

ــ « جمع ثمار الكمثرى ، على بعد مائتى ميل » .

قال توم باسى : « كنت أتمنى أن تتاح لنا فرصة العمل هنا ، ونستأجر بيتا نعيش فيه » .

قال فلويد باهتمام : « هناك أشـــياء ينبغى أن تعرفها . لن تتاح لك الفرصة للاستقرار فى مكان ما ، لأنه لا يوجد لك عمل » .

قال آل : « من الأفضل أن نذهب ونرى يا توم . وبالنسبة لى أنا ، سأذهب بغض النظر عن ذهاب العائلة أم لا » .

قال توم : « لن ترحب أمى بذلك » .

انحنى الرجال الثلاثة فوق المحرك وشرعوا يعملون فى صمت انحرفت سيارة جديدة كبيرة من على الطريق السريع ودخلت المعسكر وتوقفت فى وسطه .

قال توم : « من هذا ؟ » .

قال فلويد : « ربما يكون البوليس » .

ترك الرجال الثلاثة الأدوات التى كانت فى أيديهم واتجهوا ناحية السيارة التى نزل منها رجل .

قال : « أترغبون فى عمل يا رجال ؟ » .

توافد عدد كبير من رجال المعسكر .

ـــ « بالتأكيد نريد أن نعمل . لكن أين ؟ » .

ـــ « بمنطقة تولير ، نحن بحاجة لعدد كبير لجمع الفاكهة » .

سأل فلويد : « كم تدفعون ؟ »

ـــ « تقريبا ، ثلاثين سنتا فى الساعة » .

ـــ « لكن لماذا لا تحدد الأجر بالضبط ، ألســت موكلا من صاحب الأرض ؟ » .

ـــ « ربما يزيد الأجر قليلا ، وربما ينقص قليلا » .

تقدم فلويد خطوتين الى الامام وقال فى هدوء : « سأذهب ياسيد . أرجو أن ترينى ترخيصك . وقل لنا عن أجرنا ، وكم من الرجال تريد ، وسنذهب » .

قال الرجل : « هل تعلمنى كيف أقوم بعملى ؟ أنا

لا أعرف هذه الأمور كل ما أعرفه أننى فى حاجة الى رجال ، الى عدد كبير من الرجال » .

التفت فلويد الى الرجال حوله .

قال : « لقد صدقت هذا الكلام مرتين قبل ذلك . فقد يكون الواحد منهم فى حاجة الى ألف رجل ، ثم يجد أمامه خمسة آلاف ، وإزاء ذلك يخفض الأجر الى خمسة عشر سنتا فى الســـــاعة . ونقبل نحن لأننا جوعى . ونطلب رؤية الترخيص » .

التفت الوكيل ونادى بصوت عال : « جو ! » .

هبط من السيارة رجل متين البنيان يضع على صدره نجمة مأمور البوليس ، ويتمنطق بمسدس .

أشار الوكيل الى فلويد .

ـ « هل رأيت هذا الشخص من قبل ؟ انه يتكلم مثل الشيوعيين الحمر ويثير القلاقل » .

تطلع الرجل المتين البنيان الى فلويد بقسوة .

ـ « أجل ، رأيته من قبل فى المنطقة بالقرب من تلك السيارة المسروقة . أنا متأكد أنه نفس الشخص ، أنت أصعد الى السيارة ! » .

قال توم : « ما الخطأ الذى ارتكبه ؟ » .

قال الرجل : « لو تكلمت أكثر من ذلك ، فلسوف تصعد الى العربة أنت الآخر » . ثم تطلع الى جميع الرجال المحيطين .

وقال : « ان هذا الوكيل يمكنه أن يستخدمكم كلكم بمنطقة توليير . وربما تكون فكرة صائبة أن تذهبوا الى هناك . لأن هذا المعسكر قذر . ولابد أن نزيله تماما . ومن المحتمل أن نشعل فيه النيران ، وأعتقد أنه من الأفضل الا تتواجدوا هنا عندما نفعل ذلك . هنـــاك الكثير من العمـــل فى توليير . أنا لا أريد أن يتواجد أحد هنا غدا صباحا » . ثم توجه بالحديث الى فلويد : « أما أنت ، فلتصعد الى العربة ! » .

وعندما امسك بذراع فلويد الايسر ، كانت قبضة فلويد اليمنى تضرب وجه الرجل الضخم . واستدار فلوير ليجرى ، وبينما كان المامور يشرع فى الجرى للحاق به ، وضع توم قدمه فى طريقه ، فسقط على الارض ، واخذ يطلق النار .

صرخت امرأة . وتدفقت الدماء من اصابعها . رفع المامور مسدسه ثانية . فتقدم كاسى من بين الحشد وركله فى رقبته . فسقط على الارض مغشيا عليه .

زمجرت العربة على الطريق والوكيل بداخلها ، وبدات النسوة فى الصراخ باصوات عالية جدا . التقط توم مسدس المامور ، وافرغه من الرصاص ثم رماه بين الشجيرات .

اقترب كاسى من توم وقال له : « يجب عليك ان تهرب ، فقد رآك المامور وانت تمد قدمك فى طريقه . ولا تنسى انك مازلت تحت المراقبة ، ولسوف يرسلونك الى السجن .

سحب توما نفسا حادا عميقا وقال : « يا الهى ، لقد نسيت » . وسار مسرعا تجاه الاشجار .

من على بعد سمع صوت سارينة سيارة البوليس وعلى الفور اصاب الرجال نوع من التوتر وتوجهوا نحو خيامهم ، فيما عدا آل وكاسى . التفت كاسى الى آل وقال له : « هيا ، ادخل الخيمة . ولا شأن لك بأى شىء » .

— « لكن ، وماذا عنك انت ؟

ابتسم كاسى وقال : « لابد ان يقع العقاب على شخص ما . وانا ليس لدى اطفال . ولو انك دخلت فى مشاكل فلسوف يكون من السهل العثور على توم ويبعثون به الى السجن » .

فكر آل للحظة .

وقال : « لاباس ، يالك من احمق ، ياكاسى » .

دوت سارينة سيارة البوليس ثانية ، واقتربت اكثر

وكان جميع الرجال داخل خيامهم فى تلك اللحظة . ركع كاسى بجوار جسد المأمور وقلبه على ظهره .

نزل اربعة رجال باسلحتهم من سيارة البوليس .

ـ « ما الذى يحدث هنا ، بحق الجحيم ؟ »

قال كاسى : « لقد طرحت رجلكم هذا ارضا . فقد كان يصرخ فينا واصاب امرأة ، لذا ضربته » .

ـ « اصعد الى السيارة ! » .

قال كاسى : « سأصعد بالتأكيد » .

جلس المأمور واخذ يحملق فى كاسى وقال : « انه لا يشبه ذلك الشخص الذى ضربنى » .

قال كاسى : « انه انا . سأذهب معكم دون مشاكل . من الافضل ان تساعدوا تلك المرأة .

صعد كاسى الى الصندوق الخلفى لسيارة البوليس .

بعد فترة سمع أهل المعسكر السيارة تبدأ فى السير ، فخرجوا من خيامهم واتجهوا ناحية خيمة آل جوود وذهبوا للبحث عن توم .

تتساءل الأب : « ما الذى جعل الواعظ يفعل ذلك بحق الجحيم » .

الفصل الثانى عشر

المهـــاجرون

كانت الشمس قد غربت فى تلك اللحظة ، لكن واجهة الجبال الشرقية كانت لاتزال صـــــفراء بفعل أشعة الشمس .

راقب الأب الأم وهى تشعل نارا صغيرة . قشرت البطاطس وقطعتها شرائح فى الوعاء . خلفهما كانت روزا شارون تتحرك ببطء خارجة من الخيمة .

قالت : « أين كونى ؟ فأنا لا أشعر أننى على مايرام لا يجب أن يتركنى كونى وحدى » .

تطلعت الأم الى وجه ابنتها الحزين .

قالت : « لقد كنت تبكين ، تعالى بجوارى وقشرى البطاطس ، يجب أن تكفى عن الاحســـاس بالحزن والأسى » .

اقتربت روزا شارون من النار ببطء .

وأخذت تردد : « ما كان ينبغى أن يتركنى وحدى » ثم تناولت سكينا وقالت بقوة ! : « فلينتظر ما سيحدث له عندما أراه » .

ابتسمت الأم ببطء : « من المحتمل أن يضربك لو أنه ثبط أحاسيسـك ومشاعرك ، فسوف أشكره والآن كفى حزنا » .

كانت عينا روزا شارون تفيضان غضبا ، لكنها لم تقل شيئا . ووصل آل وتوم وهما يتحدثان بهدوء . قال توم : « ما كان ينبغى على كاسى أن يفعل ذلك . لكنـه كان يتحدث طوال الوقت عن رغبته فى فعل شىء من أجلنا » .

قال آل متسائلا : « الى أين تظن أن كونى سيذهب عندما رأيناه هناك منذ قليل ؟ »

— « لا اعرف ، لكنه كان يبتعد عن المعسكر بسرعة » .

نادى فلويد على آل وتوم بصوت خفيض من خيمته وسألهم : « هل ستتركان المكان ؟ » .

قال توم : « لا اعرف . اتظن انه من الأفضل ان ننتقل ؟ »

ضحك فلويد وقال : « لقد سمعتما ما قاله رجل البوليس . سوف يعودون ليحرقوا المعسكر الليلة بالتأكيد » .

قال آل : « اين ذلك المعسكر الحكومى الذى تكلم عنه ذلك الشخص ؟ » .

— « اتجه جنوبا على الطريق السريع رقم ٩٩ لمسافة اثنى عشر أو اربعة عشر ميلا ، ثم انحرف شرقا الى « ويد باتش » . لكننى اعتقد أن المعسكر مكتظ عن آخره » .

قال توم : « لكننا سنحاول . الى اللقاء يافلويد » .

قال آل : « الى اللقاء » وسارا فى الظلام حتى وصلا الى خيمتهم .

صاحت الأم : « انه توم . حمدا لله ! » .

قال توم : « لابد أن نرحل من هنا . سوف يحرقون المعسكر الليلة . رجال البوليس يريدون طردنا من هنا » .

قالت روزا شارون : « هل رأيتما كونى ؟ »

قال آل : « نعم . غادر المنطقة منذ فترة طويلة . اتجه الى الجنوب » .

تطلعت الأم الى ابنها بجمود .

سألته : « ماذا قال لكما ؟ » .

— « قال ، انه كان من الأفضل له لو بقى فى بلده وتعلم قيادة الجرارات » .

ساد الجميع الصمت . فيما عدا صوت قلى البطاطس على النار .

قال الأب : « كونى ، لم يكن ذا نفع ، وقد عرفت ذلك منذ فترة طويلة » .

نهضت روزا شارون واتجهت الى الخيمة ورقدت وهى تغطى وجهها بيديها » .

قال آل : « اعتقد انه لم يكن من المفيد ان نعيد كونى » .

قال الأب : « بالتأكيد ، فلا فائدة ترجى منه ، لقد هرب ونحن لا نريده » .

قالت الأم : « لا تقل ذلك . فروزا شارون ستلد طفلا . وذلك الطفل نصف كونى . قل انه مات ولا تقل عنه مثل هذه الأشياء السيئة » .

قال توم : « نحن لسنا على يقين من ان كونى تركنا . والآن ليس لدينا وقت للكلام . لابد أن نأكل ثم نمضى لحال سبيلنا » .

قالت الأم : « نمضى لحال سبيلنا . لقد وصلنا توا الى هنا » .

فشرح لها توم الموقف .

فقالت الأم بفزع : « الآن هيا نأكل ثم نمضى » .

أكلوا البطاطس الساخنة ، ثم بداوا تحميل السيارة فى صمت .

جلست روزا شارون بعيدا تراقب ما يجرى ثم قالت :

ــ « أنا أريد « كونى » . لن أرحل الا اذا عاد » .

كانت السيارات الأخرى قد بدأت فى الرحيل بالعائلات الأخرى ، بعيدا عن المعسكر . جاءت الأم وجلست بالقرب من ابنتها .

وقالت « هيا يا روزا شارون هيا يا عزيزتى » .

ــ « سأنتظر » .

ــ « لا يمكننا الانتظار » .

مالت الأم وساعدت ابنتها على النهوض . وقالت : « سوف يعثر علينا . لا تقلقى ، سوف يعثر علينا » .

قالت روزا شارون : « من المحتمل أنه عاد لاحضار بعض الكتب للدراسة . وقد يفاجئنا بعودته » .

قالت الام : « من المؤكد ان هذا ما فعله » .

ساعدوا الابنة فى الوصول الى السيارة وكذلك فى الصعود الى أعلى الحمولة » .

قال توم : « هيا ياأبى ، وانت يا ال ، اركب فى الخلف . خذ ذلك القضيب . لو حاول احد الركوب اضربه » .

وضع توم يد الرافعة الى جواره بأرضية السيارة وادار المحرك واتجه صاعدا نحو الطريق السريع متجها الى الجنوب » .

قالت الام : « كن حريصا . فنحن نهتز . كن حريصا فى قيادتك » .

سارت السيارة على الطريق . وظهر صف من الأضواء الحمراء على الطريق ابطأ توم سرعة السيارة ثم توقف . وأحيطت السيارة على النور بمجموعة من

الرجال المسلحين بالعصى والبنادق . اطل احدهم من النافذة . وقال : «الى أين انتم ذاهبون ؟» كانت رائحة فمه تفوح بالخمر ووجهه احمر . امتدت يد توم الى أرضية السيارة والتقط يد الرافعة . أمسكت الأم بيده .

قال توم ببطء : « فى الحقيقة نحن غرباء عن المكان سمعنا أن هناك عملا فى منطقة توليرا . نحن لم نرتكب اى خطأ ياسيدى » .

ـ « لقد اخطأتم الطريق ، نحن لا نريد اى أوكيين فى هذه المدينة » .

تصلب جسم توم من الغضب لكنه أخذ يتكلم برقة ،

وقال : « اى طريق نسلك ياسيدى ؟ »

ـ « خذ يمينك ثم اتجه ناحية الشمال . ولا تعودوا الى هنا ، الا عندما يحل موعد جنى القطن » .

انتفض توم من شدة الغضب وقال : « حاضر ، ياسيدى » . ودار بالسيارة وعاد من نفس الطريق الذى

جاء منه . ربتت الأم على ذراعه . وحاول توم ان يحبس دموع غضبه .

قالت الأم : « لاداعى لأن تضايق نفسك بسببهم . لقد تصرفت بشكل جيد » .

انحرف توم الى طريق فرعى وسار لمسافة مائة ياردة وأطفأ الأنوار وابطل محرك السيارة .

سألته الأم : « الى أين انت ذاهب ؟ » .

— « سألقى نظرة فقط . لن نذهب الى الشمال » .

خلال لحظات سمع صراخ وعويل حيث كانت ألسنة النيران تتماوج فى معسكرهم القديم . وغدت النيران اكثر توهجا وامكنهم سماع صوت طقطقة · كان المعسكر يحترق ، عاد توم الى السيارة ، واتجه جنوبا على الطريق السريع .

سألته الأم : « الى اين نحن ذاهبون ؟ » .

اجابهم توم : « الى الجنوب · وساحاول ان الف من خارج المدينة ولا ادخلها . سأبحث عن المعسكر

الحكومى ، لا يوجد هناك مندوبون . هل تعلمين يا امى ، اننى لو رأيت واحداً منهم فسوف اقتله » ·

قالت الأم : « خذ الأمور ببساطة يا بنى · لابد أن تكون صبوراً » ·

فقال توم : « من الصعب ان يكون الانسان صبوراً طيلة الوقت » .

ضحكت الأم فى هدوء وقالت : « أعرف · وهذا ما يجعلنا خشنى التعامل . وعلى كل فهم لن يوقفونا ، لاداعى للتوتر ، يا توم . فسيأتى زمان مختلف وتتحسن كل الأمور ، بالتأكيد » .

التفت توم للحظة ليتطلع الى امه . كان وجهها هادئا مطمئنا وهناك نظرة غريبة فى عينيها . لمس توم كتفها برقة وقال : « لم اسمعك تتكلمين كثيرا هكذا من قبل » .

فقالت : « لأنه لم يكن لدى الكثير لأتحدث بشأنه » .

انطلقت بهم السيارة عبر الشوارع الجانبية للمدينة

حتى عثروا على علامة عليها رقم ٩٩ ، فاتجه جنوبا على الطريق السريع .

قال : « وهـــــكذا لن يجبرونا على التوجه الى الشمال . سنظل نمضى فى طريقنا الى حيث نريد ، حتى ولو زحفنا » .

كانت اضواء السيارة واضحة امامهم تبدد ظلام الطريق الاسود السريع .

* * *

وهكذا اصبح هؤلاء المرتحلون مهاجرين الآن . فتلك العائلات التى عاشت وماتت على مساحة اربعين فدانا، انتقلت الآن الى الغرب الفسيح وبحث افرادها عن اعمال ، وتبعتهم عائلات اخرى كثيرة .

كان ملاك الاراضى فى الغرب خائفين ، وأخذوا يقولون : « ان هؤلاء الاوكيين لصـــوص ، واغبيـــاء واقـــذار . نحن نكرههم ، يجب أن نمنعهم من اخــذ اراضينا » .

تناضل المهاجرون من اجل الحصول على عمل . كانوا يحصلون على اجور ضــــئيلة مقابل عملهم . بالاضافة الى أنه كلما قلت الاجور . ارتفعت الاسعار .

بعد ذلك اصبح الملاك سعداء . وبعثوا بطلبات كثيرة لجلب اناس كثيرين . واكتظت الطرق السريعة بالناس الجوعى الذين لا أمل لهم فى الحصول على عمل .

كان البوليس كريما فى تعامله معهم ، بالرغم من أن هؤلاء الناس واطفالهم يتضورون جوعا . ولم يدرك ملاك الاراضى ان هؤلاء الجوعى ، من الممكن ان يثوروا عليهم .

وعلى الطرق السريعة ، كان المهاجرون يزحفون مثل النمل للبحث عن عمل ، عن الطعام . وبدأ الغضب يزداد .

الفصل الثالث عشر

المعسكر الحكومى

كان الوقت متأخرا جدا والظلام حالكا للغاية ، واخذ توم يقود السيارة ببطء عبر الطريق الفرعى ، يبحث عن معسكر « ويد باتش » .

قال توم لأبيه : « انا لا أعرف أين يوجد المعسكر . من الافضل ان ننتظر حتى يطلع النهار ونسال اى شخص » .

اخيرا راى المعسكر على مبعدة عدة مئات من الياردات . كان هناك سور من الاسلاك موازيا للطريق ،

انحرف بعده توم فى طريق فرعى ، خرج رجل من منزل صغير مضاءة نافذته .

نزل توم من السيارة وقال له : « ايوجد مكان لنا ؟ » .

ـــ « كم عددكم ؟ » .

احصى توم العدد على اصابعه وقال : « انا وابى وامى وآل وروزا شارون وروث ووينفيلد ، والاخيران طفلان » .

ـــ « لاباس ، اعتقد انه يمكن استقبالكم ، تحرك بالسيارة حتى نهاية هذا الخط ثم انحرف يمينا وستجد نفسك فى المنطقة الصحية رقم ٤ » .

ـــ « وماذا يعنى ذلك ؟ »

ـــ « يعنى ان بها حمامات ومراحيض واحواض للغسيل » .

سألت الأم : « لديكم احواض للغسيل ومياه جارية وصنابير ؟ » .

— « بكل تأكيد » .

— قالت الأم : « شكرا لله ! » .

قاد توم السيارة عبر صفين من الخيام المظلمة .

قال له المشرف : « قف هنا . ودع الآخرين ينزلون حمولة السيارة ، فى حين نقوم نحن بملأ الاستمارات » .

ترك توم الآخرين ، وصعد درجات سلم المكتب ودخل الى حجرة بها مكتب وكرسى . جلس المشرف واتخذ هيئة رسمية .

— « الاسم ؟ »

— « توم جوود » .

— « أهذا أبوك الموجود هناك ؟ »

— « نعم . واسمه توم جوود أيضا » .

— « أمعكم نقود ؟ فالاقامة بالمعسكر تتكلف دولارا فى الأسبوع . لكن اذا لم يكن معكم نقود ، يمكنكم المساعدة فى تنظيف المعسكر » .

قال توم : « سنقوم بعمل ذلك » .

— « غدا ستقابلون اللجنة . وسوف يخبركم أعضاؤها بكل التعليمات المعمول بها هنا » .

قال توم : « لجنة ؟ تعليمات ؟ هل هم بوليس ؟ » .

— « كلا ، هم زملاء لكم يعسكرون هنا . انتخبناهم للعمل بالانابة عنا ، ويمكننا الاستغناء عن خدماتهم أيضا . لا يحضر البوليس هنا الا بناء على استدعاء منا . كما ان اللجنة تضم بعض السيدات ، وسوف يذهبن لرؤية والدتك . ومساء كل سبت يقام حفل راقص ، تقدم فيه أحسن الرقصات فى المنطقة » .

قال توم : « سوف تعجب أمى بهذا المكان ، فلم تعامل بمثل هذه المعاملة اللطيفة منذ زمن بعيد » .

قال المشرف : « والآن اذهب لتأخذ قسطا من النوم . فالمعسكر يستيقظ مبكرا » .

سار توم ببطء عائدا الى السيارة . ولاحظ ان الخيام منصوبة فى خطوط مستقيمة ولا يوجد حولها أى

قذارة . وخيمة آل جوود فى آخر الصف ، حيث كل شىء هادىء .

قالت الأم بوهن : « أهذا أنت يا توم ؟ هل كل شىء على ما يرام ؟ » .

ــ « كل شىء على مايرام ، ما عليك الا ان تنامى الآن يا أمى . سأحكى لك كل شىء فى الصباح » .

قالت الأم بهدوء : « تصبح على خير » .

صعد توم الى صندوق السيارة ، واستلقى على ظهره وتطلع الى النجوم الصافية المتلألئة .

* * *

عندما استيقظ توم كانت الدنيا ماتزال ظلاما . والجبال الشرقية تبدو ككتلة سوداء ازاء تباشير الفجر المنبعثة من خلفها . فنزل من صندوق السيارة .

وبجوار احد الخيام رأى نارا مشتعلة داخل فرن قديم أسود . فاتجه ناحية الفرن ببطء ، حيث كانت هناك فتاة تعد طعام الافطار . وزكمت أنفه رائحة الخبز واللحم المشوى .

خرج من الخيمة رجلان أحدهما كبير والآخر شاب ، وعندما شاهدا توم قالا : « صباح الخير » .

كانت الفتاة تعمل فى هدوء ، وضعت اللحم فى طبق وأخرجت الخبز من الفرن . قال الرجل الكبير لتوم :

ــ « هل تناولت افطارك ؟ » .

ــ « كلا ، لم أفطر ، فمازال أهلى نائمين . لقد وصلنا فى وقت متأخر ليلة أمس » .

ــ « حسن ، اجلس معنا اذن ، فلدينا وفرة من الطعام والحمد لله » .

ملأت الفتاة الأطباق ثم أخذت تصب القهوة .

قال الشاب : « نحن نعمل منذ اثنى عشر يوما . واستطعنا شراء ملابس لنا . كما اننا نأكل جيدا لمدة اثنى عشر يوما » .

طلع ضوء النهار . وانتهى الرجلان من الأكل ثم وقفا .

قال الرجل الكبير : « حان وقت الذهاب » .

وقال الشاب : « نحن نعمل . تعال معنا . فربما تستطيع ان تجد لك عملا » .

قال توم : « هذا كرم كبير منكما . دقيقة واحدة . ساخبر اهلى » .

كانت روث مستيقظة عندما تطلع توم داخل الخيمة نهضت وخرجت الى خارج الخيمة .

قال لها توم : « اسمعى . قولى لهم اننى وجدت فرصة عمل . وقولى لامى باننى قد تناولت افطارى مع جيراننا . لا توقظيها الآن » .

فأومأت روث براسها .

* * *

بدات الحياة تدب فى المعسكر . وبدات النسوة فى اعداد الافطار فى الأفران الجديدة .

قال الرجل الكبير لتوم : « المكان ليس بعيدا ،

يمكننا الوصول اليه سيرا على الاقدام . مما جعلنا نبيع سيارتنا . فالعمل الذى نقوم به يدر مبلغا لاباس به . نحن نحصل على ثلاثين سنتا فى الساعة » .

سار الرجال الثلاثة مبتعدين عن الطريق السريع ، خلال مزرعة فاكهة حتى وصلوا الى بيت ابيض ، خرج منه رجل ذو وجه احمر .

قال الرجل الكبير : « صباح الخير ياسيد توماس . معنا صديق ، فهل توجد له فرصة عمل ؟ » .

قطب الرجل ذو الوجه الاحمر جبينه ، وقال : « بالتأكيد ! ساعهد اليه بعمل . وكذلك لاى شخص . لكنكم لن تتقاضوا ثلاثين سنتا اليوم ؛ بل خمسة وعشرين سنتا . لست أنا الذى قرر ذلك . لقد أبلغتنى جمعية المزارعين مساء أمس بأن الأجر أصبح خمسة وعشرين . واذا لم أدفع طبقا لذلك فلن احصل على سلفة البنك العام القادم » .

أطرق الرجلان بوجهيهما فى الارض وقالا : « سنعمل » .

فقال توم « وانا بالتأكيد ساعمل . فانا فى حاجة الى العمل » .

تطلع توماس الى ساعته وقال : « هيا ، دعونا نبدأ » . ثم تطلع الى اعلى وقال : « ساقول لكم شيئا ، على شرط الا تقولوا اننى اخبرتكم به . خذوا حذركم اثناء حفل الرقص يوم السبت القادم ، سينشب عراك فى المعسكر يوم السبت . سيقتحم المعسكر بعض الرفاق ويثيرون شغبا ، وسيكون البوليس جاهزا لاقتحام المعسكر » .

قال توم : « لماذا ؟ بحق الله .. فاهل المعسكر لا يسببون اذى لأى احد » .

فقال توماس : « ساقول لكم السبب ، الناس هنا تقول ان سكان معسكرنا يعيشون عيشة طيبة ، وبالتالى فانهم اذا انتقلوا الى اى معسكر فسوف يسببون متاعب . والآن هيا الى العمل . ارجو الا اكون قد تكلمت كثيرا . لكننى احبكم حقيقة ايها الناس » .

تناول الرجال المعاول والفؤوس من المخزن وشرعوا فى العمل .

ورفع توم معوله وقال : « حمداً لله على ذلك » . ثم بدأ يعمل ، وانساب العرق من فوق جبينه الى رقبته .

* * *

وقفت الأم امام الخيمة تتطلع الى اعلى واسفل . اما آل وروزا شارون والاب فقد كانوا مايزالون نائمين فى حين هرول الطفلان وينفيلد وروث اليها .

قالت الأم عندما رأتهما : « كنت فى منتهى القلق عليكما ، لاننى لم اعرف اين ذهبتما . هل رأيتما توم ؟ » .

فاجابت روث بعدم اهتمام : « قال لى توم ان اخبرك بانه وجد عملا . لقد خرج من المعسكر ليعمل » .

اقبلت الأم على روث واحتضنتها .

قالت روث وهى تشير الى مبنى الحمامات : « لديهم حمامات ودورات مياه . لقد ذهبت الى هناك » .

انطلق الطفلان يلعبان وبقيت الأم وحدها . ثم توجهت الى مبنى الحمامات ، واخذت تتطلع داخلها . كانت دورات المياه على صف واحد فى صالة واسعة ، وكل دورة مياه وحدة مستقلة لها باب . اما الأحواض فكانت مصفوفة على الجانب الآخر . وفى الواجهة توجد أربعة ادشاش مستقلة . كان كل شىء نظيفا ابيض .

فتحت احد صنابير المياه بأحد الأحواض . وعندما اندفعت المياه الساخنة منه أبعدت اصبعها . تطلعت الى الحوض ووضعت السدادة فى فتحة الحوض ، وفتحت صنبور المياه الباردة اضافة الى صنبور المياه الساخنة . غسلت وجهها ويديها وبللت شعر رأسها بالماء .

سمعت صوتا فالتفتت تجاهه ، فوجدت رجلا يقف خلفها وقال غاضبا : « ما الذى تفعلينه هنا ؟ » .

تطلعت الأم اليه وقالت : « اظن ان هذا المكان لاستخدامنا » .

قطب الرجل جبينه وقال : « هذا المكان مخصص

للرجال » ، واشار الى لافتة على الباب مكتوب عليها « للرجال » .

قالت الأم : « انا لم ارها على الاطلاق ، لكن أليس هناك مكان يمكن الذهاب اليه ؟ » .

ابتسم الرجل وقال : « هل وصلت توا ؟ » .

ـ « فى منتصف الليل » .

ـ « اذن لم تلتق بك اللجنة النسائية بعد . سوف يلتقون بك ويخبرونك بكل شىء ، وعلى كل فحمامات النساء على الجانب الآخر من المبنى » .

قالت الأم : « لا اعرف كيف اشكرك » ، واسرعت عائدة الى الخيمة .

وقالت : « انهض يا زوجى ، وانت يا آل ، انهضا لتغتسلا » . ثم بصوت عال : « انهضوا كلكم ! » .

سألها الأب : « ما الحكاية ؟ » .

ـ « اللجنة النسائية ستزورنا ، يجب علينا أن

تغتسل ونتتهي من افطارنا سريعا » . وبدأت تشعل النار .

وقالت لنفسها : « يجب أن ننتهي من ذلك سريعا . سريعا » .

خرجت روزا شارون من الخيمة وهي نصف نائمة .

فقالت لها الأم : « اذهبي الى الحمامات مباشرة واغتسلي » . ثم أردفت وهي أكثر اضطرابا : « وارتدى فستانا نظيفا وصففي شعرك » .

قالت روزا شارون : « أنا لا أشعر بأنني على ما يرام ؛ وليست بي رغبة لفعل أي شيء دون وجود كوني » .

التفتت الأم الى روزا شارون وقالت بغضب : « دعك من ذلك الشعور بالأسى ! » .

ـ « أنا لا أشعر بأنني على ما يرام ، يداهمني احساس بأنني سأمرض » .

ـ « بمجرد أن تغتسلي ، سوف تشعرين أنك على ما يرام . البسي حذاءك وصففي شعرك » .

عندما عاد الأب ، قالت له الأم : « لقد حصل توم على عمل . أخرج لنفسك ملابس نظيفة من هذا الصندوق . ثم خذ روث ووينفيلد ، واجعلهما يغتسلان جيدا بالماء الساخن ، فأنا مشغولة ! » .

وعادت الأم لتواصل الطهي وسرعان ما فاحت رائحة تحمير اللحم ، وعبق القهوة القوية .

عاد الأب بالطفلين ، ووجهاهما نظيفان مشرقان .

قالت : « يبدوان في منتهى الجمال . الطعام جاهز هيا كلوا ! » .

عاد آل من الحمام منتشيا وقال : « ياسلام ! ياله من مكان ! . سنذهب بعد الانطار للبحث عن عمل . فلابد أن نشترى وقودا للسيارة » .

وعادت روزا شارون وشعرها مبلل ومصفف بعناية ، وبشرتها تلمع ووردية . وارتدت فستانا أزرق

منقوشا بزهور بيضاء قليلة ، كما لبست في قدميها حذاء عرسها .

سألتها الأم : « أخذت حماما ؟ » .

أومأت روزا شارون برأسها .

قالت الأم : « سوف آخذ حماما عندما انتهى من اعداد الطعام . أرجو أن تريني كيف استخدمه » .

قالت روزا شارون : « سوف آخذ حماما كل يوم . قالت لي احدى السيدات ان هناك ممرضة تأتي كل اسبوع . وبامكانها ان تخبرني بما يجب على ان أفعله حتى يولد الطفل قويا . وهناك شيء آخر أيضا . لقد ولد طفل في الأسبوع الماضي ، وأقاموا له حفلا وزعوا فيها الكعك ! » .

قالت الأم : « شكرا لله ، ان حضرنا الى هنا حيث أهلنا . فهؤلاء الناس من ولايتنا » .

توجهت الأم الى الخيمة وأخرجت لنفسها رداء نظيفا

وحذاء ، وقالت : « لو حضرت اولئك السيدات قولى لهن ، انني سأعود حالا » .

جلست روزا شارون بتؤدة فوق صندوق وأخذت تتطلع الى حذائها الأسود ، ووضعت يديها على بطنها وابتسمت ابتسامة غامضة .

عندما عادت الأم كانت ترتدي رداء نظيفا وحذاء ، ويتدلى من اذنيها قرط صغير .

قالت : « لقد استخدمت الدش . وقفت تحته وتركت الماء الدافىء يغمرني من كل مكان » ثم تطلعت حولها وقالت : « كنت جالسة هنا لا تفعلين شيئا ! تعالى ! علينا ان نرتب كل شيء ، هيا قومي بترتيب الأسرة » .

نهضت روزا شارون ببطء .

وسألت أمها : « هل تعتقدين ان كوني سيعود اليوم ؟ » .

— « ربما نعم ، وربما لا . لا أعرف . سوف يعود

عندما يعود ، والآن هيا للعمل . هاهن السيدات قادمات ، هيا الى العمل حتى يتسنى لى أن اتباهى بك » .

* * *

عندما انصرفت اللجنة النسائية ، جلست الأم على صندوق خارج الخيمة .

وقالت : « ياالهن من نساء لطيفات ؟ » .

قالت روزا شارون : « أنا استطيع العمل بالتمريض خاصة بالنسبة للتعامل مع الاطفال ، بعد ان أتعلم » .

أومأت الأم برأسها وتساءلت : « ألا يكون من الخير لو أن الرجال جميعا حصلوا على عمل ؟ . هم يعملون ، ونحن نعمل ، ويكون الجميع فى أحسن حال ... » .

* * *

قاد آل السيارة وبجانبه والده ، عبر طرق جميلة وبساتين ومزارع كروم ، وعند بوابة كل مزرعة كان

آل يهدىء من سرعة السيارة ، ليواجه بلافتة مكتوب عليها : « لسنا فى حاجة الى عمال ، لاداعى للدخول » .

قال آل : « سيكون هناك مجال للعمل يا أبى ، عندما تنضج الفاكهة . وبالنسبة لى أتمنى أن أعمل فى جراج ، فانا أحب ذلك . هيا بنا نعود الى المعسكر ونسأل عما اذا كانت هناك فرص عمل أم لا . فنحن نستنفد وقودا بلا طائل » .

عادا ثانية بالسيارة الى المعسكر . فوجد الأم جالسة خارج الخيمة . فسألته : « هل وجدت عملا ؟ »

أجابها : « كلا ، بحثنا عن عمل ، لكننا لم نجد أى عمل » .

قالت الأم بأسى : « المكان هنا جميل . من الممكن أن نحيا سعداء هنا » .

قال الأب : « ذلك لو تسنى لنا الحصول على عمل » .

قالت الام : « نعم ، لو تسنى لكم الحصول على عمل . طول فترة ترحالنا لم اكن افكر فى اى شىء . أما الآن وانا اعيش بين هؤلاء الناس الطيبين ، بدأت أفكر فى الامور المحزنة التى مرت بنا ، خاصة تلك الليلة التى مات فيها الجد وبعده الجدة » .

قال الاب : « لكن توم حصل على عمل ، وسوف يعود هذا المساء » .

ابتسمت الام وقالت : « انه ولد لطيف ، أليس كذلك ؟ والآن يازوجى .. اذهب الى محل البقالة . فانا فى حاجة الى بعض البقول والسكر وقطعة من اللحم والجزر .. لكى نعد وجبة طيبة للعشاء . الليلة سيكون لدينا وجبة عشاء ممتازة ! » .

الفصل الرابع عشر

الحفل الراقص

فى صباح يوم السبت كانت النسوة يقمن بالغسيل عند صنابير المياه ثم ينشرن الملابس فى الشمس . وبحلول فترة ما بعد الظهيرة كان المعسكر يعج بالحركة الرجال مشغولون فى تجهيز ساحة الرقص . والجميع فى حالة بهجة .

فى السابعة كان العشاء قد انتهى وارتدى الرجال أفضل ملابسهم ، والفتيات ملابسهن القطنية اللامعة ، وشعورهن ناعمة مزينة بالشرائط الملونة .

كانت اللجنة المركزية تعقد اجتماعا فى احد

الاكواخ . كان هناك خمسة رجال ، ورئيس اللجنة يتحدث .

قال : « من حسن الحظ اننا اخطرنا بانه ستحدث بعض المشاكل فى حفل الرقص » .

سأله احد الرجال : « كيف نتصرف لو ان احدا حاول تسلق السور للدخول ؟ »

— « سيكون لدينا خمسة وعشرون من رجالنا الاقوياء سيشاركون بالرقص وفى نفس الوقت تكون فيه اعينهم مفتوحة لمنع اى محاولة لافساد الحفل . وفى اول بادرة للشغب سيتحركون معا ويطردون المشاغبين . كما انه لدينا خمسة رجال عند البوابة سيفحصون بعناية كل من يدخل » . واستطرد رئيس اللجنة : « لا نريد اى اصابات . فلو حدث أى اشتباك فان البوليس سوف يدخل المعسكر » .

بدأت الدنيا تظلم ، تأضيئت الانوار حول ساحة الرقص . وبدأ الناس يخرجون من خيامهم ، والضيوف يتوافدون فى سياراتهم ، صغار المزارعين ومهاجرون

من معسكرات اخرى . وعند البوابة كان كل ضيف يعلن اسم من دعاه من اهل المعسكر .

ابتسم آل لنفسه فى المرآة ، وسار متجها نحو ساحة الرقص ، وعيناه مفتوحتان على الفتيات الجميلات .

اما توم فقد تناول آخر لقمة من عشائه . فسألته امه : « الن تذهب للرقص ؟ » .

قال توم : « بالتاكيد ، فانا عضو باللجنة ، ومكلف بمراقبة دخول الضيوف عند البوابة » .

سألته الام : « الن يحدث اى شغب ؟ » .

قال توم : « على الاطلاق . يجب أن أذهب الآن . أراك فى الحفل يا أمى » .

انتهت الام من غسيل الأطباق ثم نادت على من بداخل الخيمة .

— « روزا شارون ، هيا اخرجى . الن تذهبى للحفل الراقص ؟ » .

خرجت من داخل الخيمة وقالت : « كنت سأذهب ، لكننى الآن لا اعرف . اذ يخيل لى ان الناس تنظر الى على اننى كبرت على الرقص . وكم كنت أود أن يكون زوجى كونى موجودا » .

وقفت الأم قبالة ابنتها ووضعت يديها على شعرها وقالت : « أنت آنسة طيبة ولسوف اتولى رعايتك . سوف تذهب لهذا الحفل وسوف تجلس وتشاهد فقط . تحسبا لحدوث اى شغب . وهذه حقيقة » .

* * *

وقف توم عند البوابة ، وأخذ يراقب الناس عند دخولهم للحفل الراقص ، راقب أسر المزارعين الصغار والمهاجرين المقيمين فى معسكرات أخرى . وتجاذب أطراف الحديث مع الشاب الذى يقف الى جواره .

ـ « ان مواطنينا لا يملكون شيئا . لكن دعوتهم الناس للرقص تجعلهم فخورين بأنفسهم وتعيد لهم البهجة والسعادة » . وفجأة قال الشاب : « انظر ! » .

كان هناك ثلاثة شبان يعبرون البوابة ، بعد أن تحدثوا مع الحارس .

اتجه الشاب نحو الحارس وسأله : « من الذى وجه لهم الدعوة للحضور ؟ » .

ـ « شخص يدعى جاكسون ، يعيش بالوحدة الرابعة » .

عاد الشاب الى توم وقال له : « اعتقد ان هؤلاء الاشخاص قد حضروا الى هنا لاثارة الشغب ، اتبعهم انت . بينما سأذهب انا لأحضر جاكسون من الوحدة الرابعة » .

خلال مدة دقائق كان الشاب قد عاد ومعه جاكسون .

قال له توم : « هل دعوت هؤلاء الاشخاص يا جاكسون ؟ » .

ـ « كلا ! » .

ـ « هل رأيتهم من قبل ؟ » .

قال جاكسون : « بالتاكيد ، لأننى عملت معهم ، وذلك هو السبب فى معرفتهم لاسمى » .

— « شكرا ياسيد جاكسون ، اعتقد انهم من مثيرى الشغب . سالفت نظر رجالنا لهم » .

من خلال الحشد اندفع صبى فى السادسة عشرة من عمره وقال :

— « هاى ! هناك سيارة بها ستة رجال وقفت بجوار الأشجار القريبة من السور ، وهناك سيارة أخرى على الطريق بها أربعة رجال . كلهم يحملون البنادق لقد رأيتهم » .

* * *

كان موعد بداية الرقص قد حل ، ووقف الشبان والشابات والرجال والنساء على ساحة الرقص ، على استعداد وانتظار للبدء .

بدأت الموسيقى وبدأ الرقص ، وتحرك الراقصون أسرع فأسرع ، فتطايرت خصلات شعر الفتيات ،

وتفصد العرق على جباه الشبان ، وشرع كبار السن الجالسين حول ساحة الرقص فى التصفيق والدق بأرجلهم مع الايقاع .

ابتسمت الام وقالت لروزا شارون « يذكرنى ذلك بالأيام الخوالى ، كان ابوك راقصا ممتازا عندما كان شابا » .

فجأة توقفت الموسيقى . انتهت الرقصة الأولى ، وظل الراقصون ثابتين فى أماكنهم ، بينما اندفع الأطفال يطاردون بعضهم البعض يجرون حول ساحة الرقص .

اما افراد الفرقة الموسيقية فقد انتصبوا واقفين ليفردوا أجسادهم ثم جلسوا ثانية .

تقدم راقصون جدد للمشاركة فى الرقص ، ووقف توم بالقرب من الشبان الثلاثة ورآهم يدفعون أنفسهم الى حلبة الرقص ، فتقدم اثنى عشر رجلا يبطء تجاه حلبة الرقص واخذوا يراقبونهم .

قال احد الغرباء : « سأرقص مع هذه الفتاة ! » .

لتطلع اليه شاب فى دهشـــــة وقال : « انها رفيقتى » .

ـــ « اسمع ، يا انت » !

فى الظلام خارج المعسكر سمع صوت صفير ، وفوق حلبة الرقص حوصر الغرباء الثلاثةبهدوءوباحكام شديد ، حتى اخرجوهم من حلبة الرقص . وبدا العزف وبدا الرقص مرة ثانية .

وصلت سيارة الى بوابة المعسكر .

صاح السائق : « افتح ! لقد سمعنا بحدوث شغب عندكم » .

لم يتحـــرك الحارس من مكانه ، وقال : « ليس لدينا اى شغب ، استمعوا الى الموسيقى . من انت ؟ »

ـــ « نائب المأمور ! » .

ـــ « هل وصلكم استدعاء ؟ » .

ـــ « لسنا فى حاجة الى استدعاء اذا كان هناك شغب » .

فاعاد الحارس كلامه : « ليس لدينا اى شـــغب هنا » .

تحركت السيارة ببطء ناحية الطريق وتوقفت .

وخلف حلبة الرقص فى الظلام قبض على الرجال الثلاثة » .

قال رئيس اللجنة : « اهؤلاء مثيرو الشــغب ؟ دعونا ننظر اليهم » .

اطرق الرجال الثلاثة برؤسهم ناحية الأرض .

واصل رئيس اللجنة كلامه : « ما هو القصد من اثارتكم للشغب ؟ ومن الذى حرضكم على فعل ذلك ؟ » لم يجيبوا على سؤاله فواصل كلامه : « انتم مواطنون مثلنا ، ومنا ، من الذى حرضكم لافساد حفل الرقص ؟ »

قال احد الغرباء : « الانسان منا يريد ان يحصل على طعامه » .

ـــ « من الذى ارسلكم ؟ من الذى دفع لكم للحضور الى هنا ؟ » .

— « لم يدفع لنا احد » .

— « آه فهمت ، طالما لم يحدث شغب ، فلن يدفع لكم ، أليس كذلك ؟ » .

قال احد الثلاثة : « افعل بنا ما تراه ياسيدى . فنحن لن نقول لك اى شىء ؟ » .

قال رئيس اللجنة : « ارجو أن تنصتوا الى جيدا . انتم محظوظون هذه المرة ، سوف نطلق سراحكم . لكن لو حدث ورايناكم هنا مرة ثانية فسوف نضربكم ضربا مبرحا . هيا ، اقذفوا بهم خارج السور » .

وعلى حلبة الرقص ، بدأت الفرقة الموسيقية عزف لحن جديد .

الفصل الخامس عشر

جمع الخوخ

ذات مساء والشمس الغاربة مغطاة بالسحب ، اجتمعت عائلة جوود كلها فى معسكر ، ويد باتش ، بعد ان انتهوا من طعام العشاء ، حيث شرعت الأم فى غسيل الأطباق .

فجأة قالت الأم : « لابد ان نفعل شيئا » ، واشارت الى وينفيلد : « انظروا اليه ، لا يستطيع النوم جيدا . هو ليس على مايرام . وتوم عمل لمدة خمسة ايام فقط . لم يجد احد آخر فرصة عمل على الاطلاق . وليس

لدينا طعام الا ليوم واحد . ولن ينهض احد منكم حتى نقرر ماذا نفعل » .

تطلعوا الى الارض ، واخـــذ الأب يقلم اظافره السميكة بسكينة .

قالت الام بغيظ : « ماذا يحدث لهذه العائلة ؟ » .

قال الاب : « اعتقد انه ينبغى علينا ان نرحل من هنا . صحيح أنا لا أرغب فى ذلك ، فالمكان هنا لطيف والناس طيبون . لكن يتحتم علينا أن نحصـــل على طعامنا » .

قال آل : « خزان السيارة مليء بالوقود ، وهذا يتيح لنا الذهاب الى أى مكان آخر » .

قالت الام : « انا لن اقف مكتوفة الايدى لاشاهد هذه العائلة وهى تتضور جوعا . فروزا شارون سوف تلد طفلها . ولابد أن تتغذى جيدا » .

قال الاب : « لكن هنا توجد حمـــامات ومياه ساخنة .. ودورات مياه » .

قالت الام : « اذا لم ناكل ، فلن نذهب الى دورات المياه » .

قال آل : « قال لى شخص ان محصول القطن فى منطقة قريبة من هنا تجاه الشمال ، حان وقت جنيه .

قالت الام : « اذن يتحتم علينا ان نذهب الى هناك، وبسـرعة » .

سأل توم : « متى ؟ » .

اجابت الام : « نرحل فى الصباح . فلقد اخبرتكم بما لدينا من طعام » .

زمجر الاب غاضبا ، وقال : « لقد تغير الزمن . النساء يقررن بدلا من الرجال ما ينبغى عمله » . ثم نهض غاضبا ومشى بعيدا .

قالت الام بزهو الى توم : « لا تخش عليه . اذا استطعت ان تغضب رجلا قلقا ، فسيكون بعدها على ما يرام » .

قال توم : « لقد بدأت اتعب » يا أمى . فكيف السبيل الى اغضابى ؟ » .

قالت الأم : « لست فى حاجة الى ان أغضبك ، فانت لن تستسلم ابدا » يا توم » .

قال توم : « ساذهب لأرى السيارة » . ومشى بعيدا .

كانت روزا شارون تجلس فى هدوء أثناء حديثهم ، بعدها نهضت ببطء .

سألها الأم : « هل أنت على مابرام ؟ » .

— « لم يعد لدى لبن » .

— « اعرف . ليس لدينا لبن » .

قالت روزا شارون : « لو أن زوجى لم يرحل بعيدا ، لكان لدينا الآن بيت صغير ، ولبن ، ان الطفل لن يكون على مابرام دون لبن » .

قالت الأم : « لا تقولى ذلك ابدا عن الطفـــل . ولا يراودك التفكير ابدا فى ذلك » .

— « لازوج ، ولا لبن » .

قالت الأم : « لو كنت فى حالة غير ذلك ، لكنت صفعتك على وجهك » . ثم نهضت ودخلت الخيمة ، ومالبثت أن عادت وهى تفرد يدها وبها الحلق الصغير .

قالت : « انظرى ! انه لك . خذيــــه . انه ملكك الآن . سيكون طفلك على ما يرام » .

* * *

أخذ آل يتمشى بعيدا عن الخيمة وهو يصفر برقة ، ثم جلس عند طرف المعسكر ، لم تمض دقائق قليلة حتى جاءت فتاة شقراء جميلة الوجه وجلست بجوار آل .

قال آل : « سنرحل غدا » .

— « غدا ؟ الى اين ؟ » .

— « الى الشمال » .

سألته الفتاة : « لكننا كنا ســــنتزوج ، أليس كذلك ؟ » .

— « قريبـــا » .

قالت الفتاة : « قريبا ! لقد وعدتنى ، وأنت الآن راحل . هذا ليس عدلا » .

بدات الفتاة فى النهوض ، لكن آل امسك بها وجذب ذراعها الى اسفل ، ووضع يده على فمها . ولم تمض لحظة حتى كان الاثنان يضحكان فى سعادة ، وهى مستلقية على ظهرها وآل منحن عليها .

سألته : « كم من الوقت تعتقد انك ستبقى هناك ؟ »

— « حوالى شهر » .

* * *

كان الوقت لايزال ظلاما عندما أيقظت الأم العائلة فى الصباح .

قالت الأم : « هيا ! استيقظوا ! فلابد أن نكون على الطريق مبكرين . ليس لدينا قهوة . يوجد بعض البسكويت ، يمكننا تناوله على الطريق ، هيا ، حتى يمكننا تحميل السيارة » .

ارتدت العائلة ملابسها ، وحمل الرجال السيارة ووضعوا المراتب اعلى الحمولة .

قال توم : « كل شـىء على مايرام ، يا امى . السيارة جاهزة ! » .

سارت السيارة ببطء اثناء خروجها من المعسكر وكذلك على الطريق ، وظل توم يقود السيارة حتى وصل الى الطريق السريع رقم ٩٩ ، عند ذلك انحرف يسارا تجاه « بيكرزفيلد » . واستمر فى القيادة مارا بمشارف المدينة وعبر الطريق السريع .

قال توم : « جو الصباح يغدو باردا ، فالشتاء على الأبواب . نرجو أن نكتسب بعض النقود قبل حلوله » .

قالت الأم : « لابد ان نقيم فى بيت اثناء الشتاء ، ولابد من ذلك . فقد سمعت أنها تمطر بشدة هنا . لابد ان نقيم فى بيت حين يهطل المطر . فونتيلد ليس قويا بما فيه الكفاية ولا يتحمل » .

غدت اشعة الشمس اكثر اشراقا ودفئا . فوقفت

سيارة على الجانب الآخر من الطريق ونادى رجل على توم .

ـ « هل تبحثون عن عمل ؟ » .

ـ « بكل تاكيد ، ياسيدى » .

ـ « ايمكنكم جمع الخوخ ؟ » .

قال توم : « يمكننا جمع اى شىء » .

ـ « عظيم ، هناك فرصة عمل كبيرة لكم ، على بعد اربعين ميلا تجاه الشمال ، اتجه شمالا حتى « بيكسلى » ثم انحرف شرقا لمسافة ستة اميال . ثم سل عن مزرعة « هووبر » . ستجد عملا كثيرا هناك . اذهب الى هناك باسرع ما تستطيع .

ـ « شكرا لك ياسيدى . فنحن فى حاجة ماسة الى العمل » .

سارت العربة بهم عبر الحقول المشمسة وقت الصباح .

قال توم : « من المحتمل ان نحصل على عمل اليوم » .

قالت الأم : « لو وفقتم الى عمل ، فباستطاعتى أن اشترى بالاجل . واستطيع بالتالى ان احضر شيئا من القهوة والدقيق واللحم والصابون واللبن . ينبغى الحصول على لبن من اجل روزا شارون . لكن ترى أين سنقيم ؟ » .

كانت الأم تجلس الى جوار آل وتوم فى كابينة السيارة وهم فى منتهى السعادة .

قالت الأم : « لم اشعر بالراحة منذ فترة طويلة . من الممكن ان نستأجر بيتا لمدة شهرين . لابد ان نقيم فى بيت . وسأقوم بتخزين كم من الطعام » .

حوالى وقت الظهيرة وصلوا الى « بيكسلى » . ومضوا داخل المدينة الصغيرة ثم اتجهوا شرقا عبر طريق ضيق .

وبعد فترة ، وجدوا الطريق امامهم مزدحما

بالسيارات . وعندما اقتربوا وجدوا رجل بوليس يرفع يده ليستوقفهم .

ـ « الى اين انتم ذاهبون ؟ » .

قال آل : « نحن نبحث عن عمل ، فى جمع الخوخ » .

ـ « لابأس ! » وتحرك رجل البوليس الى جانب الطريق ، واستطاع آل ان يرى خمس سيارات منتظرة امامهم .

قال رجل البوليس بصوت مرتفع : « هذه هى السيارة السادسة ، يمكننا ان ندعهم يمرون » .

تحركت قافلة السيارات وامامها اثنان من راكبى الدراجات البخارية ، وخلفها اثنان كذلك .

قال توم : « انا لايعجبنى ذلك . ما الذى يحدث ؟ »

انحرفت الدراجات البخارية عن الطريق وتبعتهم السيارات . ورأى توم صفا من الرجال واقفين فى

منطقة منخفضة على جانب الطريق وهم يهتفون ويلوحون بقبضاتهم ، ثم فتحت بوابة كبيرة من الاسلاك ومرت السيارات الست عبر البوابة ثم اغلقت خلفها وعادت الدراجات البخارية ادراجها .

كان هناك رجلان مسلحان بالبنادق يقفان على جانب الطريق صاح احدهما : « هيا ، هيا ، تحركوا ، ماذا تنتظرون بحق الجحيم ؟ » .

واصلت السيارات سيرها ثم انحرفت فى منحنى بعدها وصلوا الى معسكر جمع الخوخ . (بيتش كامب) .

كان المعسكر يتكون من خمسين وحدة سكنية اشبه بالصناديق لكل منها نافذة وباب ، مجموعة البيوت فى شكل مربع ، وخزان مياه على طرف المعسكر ومحل صغير للبقالة على الطرف الآخر . وفى نهاية كل صف من البيوت كان يقف رجال مسلحون يضعون شارات فضية على شكل نجمة فوق قمصانهم .

ـ « تريدون العمل ؟ » .

ـــ « بكل تاكيد » .

ـــ « الاسم ؟ » .

ـــ « عائلة جوود » .

ـــ « كم عددكم ؟ » .

ـــ « ثلاثة رجال وامرأتان وطفلان » .

ـــ « كلكم قادرون على العمل ؟ » .

ـــ « كلنا قادرون .. بالطبع » .

ـــ « لاباس . ستقيمون فى البيت رقم ثلاثة وستين الاجر خمس سنتات مقابل كل صندوق ، هيا باشروا عملكم » .

كانت ارقام المساكن مكتوبة على الابواب بلون احمر .

قال توم : « ثلاثة وستون . لابد ان يكون فى تلك الناحية . واحد وستون اثنان وستون . هاهو ! » .

اوقف توم السيارة . وهبطت العائلة واخذت تتطلع الى البيت باندهاش جاء اثنان من المشرفين واخذا يتطلعان الى عائلة جوود شذرا .

سأل احدهما : « الاسم ؟ » .

اجاب توم : « عائلة جوود اقول لك . ماذا هناك ؟ » .

نظر احد المشرفين فى قائمة طويلة ، وقال : « عائلة جوود . هذا الاسم ليس موجودا فى القائمة ولا رقم السيارة ، لكن يبدو انهم سمحوا لهم بالدخول . على اى الاحوال ، نحن لا نريد مشاكل هنا . قوموا بعملكم ولا تتدخلوا فيما لا يعنيكم ، بذلك تسير الامور على مايرام بالنسبة لكم » .

حملق توم فيهما .

فتحت الام باب البيت وخطت داخله . كانت الارضية قذرة ، والمكان عبارة عن غرفة واحدة وبها موقد قديم ولا شيء غير ذلك .

قالت روزا شارون التى كانت تقف خلف الأم : « هل سنعيش هنا ؟ »

صمتت الأم للحظة ثم قالت اخيرا : « بالتاكيد . لن يكون سيئا الى هذا الحد اذا قمنا بتنظيفه . ولن يسمح بتسرب الماء عندما تمطر » .

قام الرجال بتفريغ حمولة السيارة فى صمت . وداهمهم شعور بالخوف ، ازاء هذا السكون الذى يعم المكان . مرت بهم امراة ، لكنها لم تنظر اليهم ، وظل « ويندليد » و « روث » بجوار السيارة ، بالقرب من العائلة .

اثناء قيام الأب وتوم بحمل المراتب الى الداخل جاء الكاتب وسأل :

ـــ « كم عدد الذين سيقومون بالعمل ؟ » .

قال توم : « ثلاثة رجال . هل العمل صعب ؟ هل يستطيع الصغار القيام به ؟ » .

ـــ « مجرد جمع ثمار الخوخ . خمس سنتات للصندوق . بامكان اى شخص ان يقوم بذلك ؟ »

قالت الأم التى كانت تقف عند مدخل المسكن : « ليس لدينا ما نأكله ياسيدى . هل من الممكن ان تدفع لنا الآن ؟ »

ـــ « كلا ، لكن ، بمجرد ان تقوموا بالعمل ، يمكنكم الشراء بالاجل من محل البقالة » .

قال توم : « هيا بنا اذن ، فلنسرع . الى اين نذهب ، ياسيدى ؟ » .

ـــ « انا فى طريقى الى منطقة العمل . تعالوا معى » .

سار آل وتوم والأب فى شارع قذر ثم دخلوا المزرعة حيث كان الخوخ يتدلى كرات صغيرة مشوبة باللون الذهبى الاحمر ، من فوق الأشجار . كانت هناك اكوام من الصناديق الفارغة . كان العمال يقومون بجمع

الخوخ فى سلال ثم يقومون بوضعها فى الصناديق ، ثم يحملون الصناديق التى ملأوها للفراز .

قال الكاتب للفراز : « اليك ثلاثة من العمال » · ثم وجه كلامه الى الرجال الثلاثة : « ارجو ان تجمعوا الثمار بعناية . نحن لا نحتسب الثمار الفاسـدة او المخدوشة . هاهى السلال ، هيا ابدأوا » .

قال توم : « هيا يا آل » .

انطلق توم يجرى بين الاشجار واخذ يعمل بسرعة سلة ، اثنتان ثلاثة ، امتلأ الصندوق ، فأخذه الى الفراز بسرعة .

وقال : « انا لا استطيع محاسـبتك على هذا الصندوق . فالثمار كلها مخدوشة . لابد ان تجمعها برفق وتضعها بعناية فى الصندوق ، والا فسيكون عملك بلا جدوى » .

فشرع توم يقول : « لكن ، ياسيدى » .

ـ والآن اعمل بهدوء ، فقد نبهتك قبل ان تبدأ »

اخفض توم جفنيه وقال : « حاضر ، حاضر » وعاد بسرعة لزميليه · وقال لهما : « من المحتمل ان يرمى كل ما تجمعان من ثمار ، اذا كانت مخدوشة · ضعا الثمار فى السلال برقة ، ثم بعناية فى الصناديق » .

عاودوا العمل من جديد ، وتعاملوا مع الثمار برقة وعناية واخذت الصناديق تمتلىء ببطء شديد . واصلوا العمل بشكل مستمر طوال فترة ما بعد الظهيرة ، وبعد فترة حضر كل من وينتبلد وروث .

قال الأب لهما : « يجب عليكما ان تعملا معنا · ما عليكما الا ان تضعا الثمار بعناية فى الصناديق » ·

انقضت فترة ما بعد الظهيرة ، وحمل توم الصناديق المليئة الى الفراز قال توم : « هذه سبعة صناديق ، وهذا هو الثامن . المقابل اربعون سنتا ، من الممكن ان نحصل على قطعة لحم طيبة » .

خلال فترة ما بعد الظهيرة حضرت الأم لتعمل معهم وقالت : « كان بودى ان احضر قبل ذلك ، لكن روزا شارون حالتها سـيئة » . ثم تطلعت الى الطفلين

وقالت : « لقد اكلتما الكثير من ثمار الخوخ سيمرضكما ذلك » .

عندما غربت الشمس ، كانوا قد ملأوا عشرين صندوقا .

وسأل توم المزار : « أيمكننا أن نشترى بالاجل الآن ، مقابل الدولار الذى عملنا به » .

— « بالتأكيد ، سوف أعطيك ورقة لتشترى بما يساوى دولارا » .

أخذ توم الورقة واتجه ناحية الام وقال لها : « اليك هذه الورقة ، يمكنك الآن شراء ما تشائين على الحساب فى حدود دولار من محل البقالة » .

قالت الام : « ماذا تريد ان تأكل ؟ » .

قال توم : « لحم . لحم وخبز . وكمية وفيرة من القهوة المحلاة بالسكر » .

* * *

كان محل البقالة عبارة عن سقيفة كبيرة ، فتحت الأم الباب وتلفتت الى الداخل ، حيث كان يقف رجل ضئيل الحجم أصلع وراء طاولة البيع .

قالت الأم : « مساء الخير . معى ورقة بالشراء على الحساب فى حدود دولار » .

قال الرجل : « يمكنك أن تأخذى ما تشائين فى حدود دولار ، أى شيء ترغبين فيه فى حدود دولار » . وضحك بصوت عال .

— « انا فى حاجة الى قطعة من اللحم » .

قال الرجل : « لدينـــا كل انواع اللحم . لحم الهامبورجر وسعر الرطل اثنى عشر سنتا » .

قالت الام : « أعتقد ان لحم الهامبورجر دسم جدا ، كما ان سعر الرطل لا يساوى أكثر من عشر سنتات » .

ضحك الرجل : « ربما يكون ذلك فى المدينة ، واذا ذهبت الى المدينة فسيكلفك ذلك جالونا من الوقود .

اتأخذين بعض العظام ! سعر الرطل عشر سنتات . يمكنك صنع حساء ممتاز » .

تنهدت الأم : « أعطني رطلين من الهامبورجر » .

ـ « حاضر ياسيدتي . وماذا غير ذلك ؟ » .

ـ « وشيئا من الخبز » .

ـ « من هذا ؟ ثمن هذا الرغيف الكبير خمسة عشر سنتا » .

فقالت الأم : « لكن ثمنه اثنى عشر سنتا » .

ـ « بالتأكيد » . اذهبي للمدينة اذن واشتريه باثنى عشر سنتا . اتريدين بطاطس ؟ خمسة ارطال بربع دولار » .

قالت الأم غاضبة : « انا اعرف سعر البطاطس ، من صاحب هذا المحل ؟ »

ـ « الشركة ياسيدتي . وهي التي حددت الاسعار » .

نظرت الأم اليه شذرا وقالت : « أعتقد أن كل من يحضر الى هنا لابد أن يصاب بالغضب ، وهذا هو السبب في انك تضحك انت خجل بما تفعله » .

لم يجب الرجل .

سألته الأم : « ما سعر القهوة ؟ » .

ـ اثنى عشر سنتا للقهوة العادية ، ياسيدتي ، وبذلك يكون الدولار قد اكتمل .

قالت بسرعة : « لف الحاجيات ! » .

حملت الأم الحاجيات ، ثم تذكرت السكر ، فقالت : ليس لدينا سكر . ابني توم يريد سكر . اسمع ، انهم يعملون بالمزرعة . الا يمكنك اعطائي بعض السكر ، على ان احضر لك الورقة فيما بعد ؟ » .

قال الرجل الضئيل الحجم برقة : « لا استطيع ، لان ذلك يدخلني في مشاكل » .

قالت الأم : « لكننا سنحصل على المزيد من النقود ، اعطني سكرا بعشر سنتات » .

— « لكنهم سيقبضون على اذا فعلت ذلك » .
ثم تطلع الى الأم وتخلى عن وجهه الخوف واخرج عشر سنتات من جيبه . وتناول كيسا من السكر ووزنه ثم ناوله للأم .

قالت الأم بهدوء : « اشكرك . لقد تعلمت شيئا حقيقيا رائعا ، وهو انك لو وقعت في ورطة او كنت في حاجة للمساعدة ، تتوجه للناس الفقراء . فهم الوحيدون الذين يقدمون المساعدة ، الوحيدون فقط ! » .

اغلقت الباب خلفها ، واخذ الرجل يتطلع اليها بعينين مندهشتين وهي تمضي .

* * *

كانت النار تزار في بيت عائلة جورد . والأم تعمل بسرعة بينما كانت روزا شارون جالسة فوق الصندوق .

سألتها الأم : « هل تشعرين بتحسن الآن ؟ اجلسي فوق السرير فأنا احتاج لهذا الصندوق للنار » .

عاد الرجال يمشون متثاقلين .

قال توم : « لحم ، بحق الله ! كما اشم رائحة قهوة ! انا جوعان . اين يمكن ان اغتسل ، يا امي ؟

— « اذهب حيث خزان المياه هناك . خذ باقي افراد الأسرة معك » .

عادت الأم الى الفرن . اخرجت الأطباق ووضعت قطعتين من الهامبورجر لكل فرد . وحبة كبيرة من البطاطس وثلاث شرائح من الخبز . عاد الرجال والماء يقطر من وجوههم وشعورهم .

تناولوا الأطباق واكلوا في صمت .

سألها توم : « الديك المزيد ، يا امي ؟ »

قالت الأم : « لا ، هذا كل شيء ، هذا ما استطعت ان احضره مقابل دولار . فالأسعار هنا مرتفعة جدا . غدا ستعملون يوما كاملا ، وبالتالي سيكون لدينا الكثير » .

مسح آل فمه بكمه وقال : « اتمنى ذلك بالتأكيد ، لكننى مازلت جوعانا » .

ثم نهض وقال : « سأتمشى قليلا » . وسار فى الظلام .

بعد فترة نهض توم وقال : « سأذهب لاتمشى انا أيضـــا . اريد ان ارى اذا كان هؤلاء الرجال مازالوا واقفين على الطريق ام لا » .

قالت الأم : « توم ، أرجوك لاداعى للدخول فى مشاكل » .

سار عبر الشارع ويداه فى جيبه . ورأى بالقرب من البوابة رجلين مسلحين . فاستدار بهدوء وسار فى الاتجاه المعاكس .

الفصل الســادس عشر

تــوم فى ورطــة

سار توم حوالى مائة ياردة على الطريق ، ثم توقف وأخذ ينصت بعدها ترك الطريق واتجه ناحية اليمين . سار ببطء عبر الحقول حتى وصل الى سور المزرعة السلكى . تسلل من تحته ببطء شديد ، بعد أن رفـع السلك من أسفل .

كانت هناك مجموعة تســـير على حافة الطريق السريع . انتظر توم حتى مروا به ، ثم تبعهم .

على الطريق السريع كان يوجد جسر صغير يعبر

مجرى مائيا ، وهنـاك اسـفل الجسـر رأى خيمـة ، بداخلها فانوس مضيىء .

هبط توم الى اسفل ، حيث كان رجل يجلس على صندوق امام الخيمة .

قال توم : « مساء الخير » .

ــ « من انت ؟ » .

ــ « مجرد عابر سبيل » .

صـدر صـوت من داخل الخيمة قائلا : « ماذا هناك ؟ » .

صاح توم : « كاسى ! مستحيل ! ماذا تفعل هنا ، يا كاسى ؟ » .

ــ « يا الهى ، توم جوود ! ادخل ، ادخل ! » .

جذب كاسى توم معه داخل الخيمة ، حيث كان يجلس ثلاثة آخرون .

قال كاسى : « هذا توم جوود ، الذى حدثتكم عنه ، اين عائلتك ؟ وماذا تفعل هنا ؟ » .

قال توم : « علمنا انه يوجد عمل هنا . فقادنا البوليس الى معسكر جمع الخوخ ، وعندما وصلنا الى بوابة المعسكر شاهدت مجموعة من الرجال تقف خارج المعسكر وهى تصيح . لذا فقد جئت الى هنا لاكتشف ماذا يحدث ؟ لكن ، كيف وصلت الى هنا ، يا كاسى ؟ »

قال احد الرجال : « لقد اضربنا عن العمل ، توقفنا عن العمل . قمنا باضراب » .

قال توم : « صحيح ان خمس سنتات ليست بالكثير مقابل الصـندوق ، لكنها تكفى بالكاد لكى يأكل الاثنـان » .

خيم صمت ثقيل على الخيمة ، وحملق كاسى فى الظلام .

وقال : « اسمع ، يا توم ، عندما جئنا الى هذا كان عددنا كبيرا ، وقالوا لنا الأجر خمس سنتات لكل

صندوق . وعندما بدأنا العمل قالوا لنا ستدفع سنتين ونصف ، وهذا لا يسد رمق اى انسان . تقررنا الا نعمل مقابل سنتين ونصف . وجاءت الشرطة وطردتنا خارج المعسكر ، عندما ينتهى هذا الاضراب ، هل تعتقد انهم سيدفعون خمس سنتات ؟

قال توم : « انهم يدفعون الآن خمس سنتات » .

ـ « بعضنا لم يأكل منذ عدة ايام . عد الى المعسكر وقل للآخرين ما حدث . انتم تجعلوننا نتضور جوعا ، لانكم قبلتم العمل ، سرعان ما سيأتى الدور عليكم وتتضورون جوعا والآن وقد طردونا فلن يمضى وقت طويل حتى يمطونكم سنتين ونصف . وهذا المبلغ لن يكفى لطعامكم » .

قال توم : « ساحاول ان اخبر الآخرين ، لكنهم لن يتكلموا ، وخاصة فى وجود كل اولئك الحراس المسلحين » .

قال كاسى : « اسمع ياتوم ، حاول ان تجعل كل

الآخرين يقومون باضراب . خاصة وأن ثمار الخوخ ناضجة ولابد ان تجمع » .

قال توم : « لن يقوموا باضراب ، لانهم يتقاضون خمس سنتات الآن ، ولن يصغوا الى ، سيرفض والدى ذلك وسيقول هذا ليس من شأنه » .

قال كاسى باسى : « اجل . اعتقد انك على صواب » .

قال توم موضحا : « نحن لم يكن لدينا طعام . اما الليلة فلدينا لحم . وابى لن يتوقف عن تناول اللحم . وروزا فى حاجة الى لبن ، وامى لن تقبل ان تضحى بجنين ابنتها من اجل بعض الاشخاص الذين يتصايحون عند البوابة » .

خرج احد الرجال خارج الخيمة . وتبعه توم .

وقال : « انصت ! » .

قال توم : « اسمع اصواتا . هناك بعض الاشخاص قادمون نحونا » .

قال كاسى : « هيا بنا نهرب » . وتحرك الرجال بهدوء تحت الجسر .

صاح احد الرجال القادمين : « هاهم هناك » .

سلط عليهم نور كشاف فاعمى أبصارهم .

قال نفس الصوت فى الظلام : « ها هو ذا » .

قال كاسى : « اسمعوا ، انتم لا تقدرون ما تفعلونه انتم تعملون على أن يتضور الأطفال جوعا » .

تقدم رجل قصير قوى البنيان تحت ضوء الكشاف وفى يده عصا غليظة .

قال كاسى : « انتم لا تقدرون مدى ما تفعلونه » .

طوح الرجل القصير القوى بالعصا ، فاصطدمت باحد جانبي رأس كاسى فسقط على الأرض .

فقال احدهم : « يا الهى ، اعتقد انك قتلته ! » .

وركزت اضاءة الكشاف على رأس كاسى المصابة .

قفز توم تجاه العصا وامسك بها . واصابت أول ضربة منه كتف الرجل القصير القوى ، تلتها ثلاث ضربات متلاحقة على رأسه .

توقف توم فى مكانه ، حدث هرج ومرج وصيحات ، ولم يشعر توم الا بضربة موجهة الى جانب رأسه . فجرى بمحاذاة المجرى المائى ، وهو منحنى، ثم انحرف ناحية بعض الشجيرات واستلقى بينها ساكنا . بعدها عبر منطقة الحقول حتى وصل الى سور المزرعة وتسلل من تحته . كانت انفه متورمة والدماء تقطر من ذقنه . استلقى على بطنه حتى يعاود انفاسه . ثم غسل وجهه بشىء من الماء بأحد الحفر .

عاد الليل الى سكونه . عبر توم الحفرة ومنها الى الطريق ، حتى وصل الى البيت فوجد الباب مواربا .

جاءه صوت الأم هادئا ومباشرا . « من ؟ » .

ـ « أنا توم » .

ـ « طيب . فلأنم قليلا . آل لم يعد بعد » .

لم ينم توم فقد كان وجهه يضج بالألم .

وعاد آل ونام على الفور .

واخير حل الفجر وبدأت الحركة تدب فى البيوت المجاورة . نهضت الأم وبدلت ملابسها ثم وقفت بجوار النافذة للحظة ثم ايقظت الأب .

قالت : « هل معك مزيد من النقود ؟ » .

ـ « اجل ، معى ورقة بستين سنتا » .

ـ « اذن ، احضر لنا بعض الدقيق ووقودا للفرن . فالاولاد لابد ان يأكلوا ليبدأوا العمل » .

ارتدى الأب ملابسه وخرج . واتجهت عينا الام الى توم ، تسارعت اليه عندما رأت وجهه متورما وازرق اللون . كان خده مجروحا والدماء السوداء الجافة على شفتيه وذقنه .

همست الأم : « توم ، ماذا حدث ؟ » .

ـ « لا تتكلمى بصوت عال . لم أتحمل الموقف

فتشاجرت . انا فى ازمة . لا استطيع ان اعمل . لابد ان اختبىء » .

ـ « هل هى مشكلة خطيرة ؟ » .

ـ « اجل ، خطيرة ! » .

عاد الأب . وكان الآخرون قد استيقظوا ، وتطلعوا الى توم .

حاول توم أن يجلس وقال : « يا الهى ، انا متعب جدا . لكننى سأحكى لكم كل شىء . بالأمس عثرت على كاسى . لقد كان زعيم الاضراب الذى حدث عندما حضرنا الى هنا . هاجمه بعض الرجال وقتلوه . فجن جنونى . فأمسكت بالعصا وضربت واحدا منهم .

سأله الأب : « هل قتلته ؟ » .

ـ « لا أعرف . لكننى حاولت قتله » .

ـ « هل رأوك » .

ـ « اعتقد ذلك . فقد كان معهم كشافات يصوبونها نحونا » .

حملقت الأم للحظة فى عينيه ثم قالت : « والآن هيا نتناول افطارنا . كسـر لنا بعض الصـناديق يا زوجى . لابد أن نعمل . واذا سألك أحد يا روث أو أنت يا وينفيلد عن توم ، قولا انه مريض » .

قام الأب بتكسير الصناديق وقامت الأم باشعال النار .

اقترب الأب من توم وقال : « كان كاسى رجلا طيبا لكن لماذا قام بالاضراب ؟ » .

اخبره توم بتفاصيل الموضوع ثم قال : « والآن ، مات كاسى . تلك هى نهاية الاضراب . سوف يعطوننا سنتين ونصفا اعتبارا من اليوم . وسوف ترون » .

تطلع الأب من النافذة وقال : « هناك مجموعة جديدة قادمة للعمل » .

قال توم : « اعتقد انهم لن يعطونا الا سـنتين ونصفا » .

التفتت الأم من امام الموقد وقالت : « اصغوا الى ،

الليلة سيكون طعامنا فقيرا ، ليس امامنا سوى الدقيق . عندما يتوفر لنا من النقود ما يكفى لشراء وقود للسيارة سنرحل من هنا . فهذا المكان ليس جيدا . هيا ، تناولوا طعام افطاركم واخرجوا للعمل » .

عندما خرج الأب وآل والطفلان . اخذت الأم طبقا وقدمته لتوم .

ـ « من الافضل ان تأكل شيئا » .

ـ « لا استطيع يا أمى ، وجهى يؤلمنى جدا . لم اكن ادرى بالذى كنت افعله . لكن ذلك الشخص الذى ضرب كاسى .. » .

قالت الأم : « سيكون كل شىء على ما يرام .. كم كنت اتمنى الا تكون هنـاك . لكنك قمت بالذى كان يجب عليك أن تفعله . لا اجـرؤ على القول بانك اخطأت » .

ذهبت الى الموقد وغمرت قطعة قماش فى الماء الساخن .

وقالت : « ضع هذه على وجهك » .

قال توم : « سأهرب الليلة يا أمي . فانا لا اود ان اجلب لكم المشاكل » .

قالت الام غاضبة : « لن تهرب يا توم . العائلة هكذا تتفسخ . وروزا ستلد طفلها . ونحن فى حاجة اليك . لا تهرب يا توم . ابق معنا وساعدنا » .

قال توم : « حاضر . رغم اننى اعرف انه لا يجب على ان ابقى هنا » .

ـ « حاول ان تنام الآن . وسأذهب انا للعمل . وانت يا روزا اذا حضر اى شخص لا تدعيه يرى توم . توم مريض . هل فهمت ؟ لا تدعى أى احد يراه » .

استلقى توم ساكنا ، وحاول ان ينام .

ـ « توم ! » .

تطلع توم الى اخته روزا شارون التى كانت عيناها تبرقان بالغضب وقال : « نعم » .

ـ « لقد قتلت شخصا ! وهذا ليس أول شخص تقتله » .

ـ « لا ترفعي صوتك ! اتريدين أن يحضر احدهم الى هنا » .

قالت بصوت مرتفع : « وماذا يهمنى فى ذلك ؟ يا للظروف التى سألد فيها طفلى ؟ . لقد رحل زوجى « كونى » ولا اتغذى جيدا ، ولا اشرب اللبن . وتاتى انت الآن وتقتل شخصا » .

ـ « اسكتى ! » .

ردت روزا شارون : « ابتعد عنى . فانا لا اريد ان أرى وجهك » . وغطت راسها بملاءتها ، وسمعها توم تبكى .

نهض توم وتوجه الى فراش ابيه ، حيث كانت توجد بندقية طويلة وثقيلة تحت المرتبة . اخذ البندقية وعاد الى فراشه ووضعها الى جواره ، ثم استلقى على الفراش وغطى وجهه بالملاءة .

بالخارج كانت هناك عربات تروح وتجيء وأصوات اناس .

ـ « انت تذهب الى البيت رقم ٢٥ » .

ـ « حاضر ياسيدى . كم تدفعون ؟ »

ـ « سنتان ونصف » .

ـ « ماذا ، انها لا تكفى لكى يسد الانسان رمقه »

ـ « اما ان تقبل ، او تنصرف لحال سبيلك . لست انا الذى يحدد الاجـــر . كما انه ليس لدى وقت للنقاش » .

ـ « قلت المنزل رقم خمسة وعشرون ؟ »

ـ « نعم ، خمسة وعشرون ! » .

الفصـــل الســـابع عشـــر

ســـر العـــائلة

قبل حلول المساء بقليل عادت الأم الى البيت وطرقت الباب .

ـ « انه انا » . ثم سألت : هل حضـــر احـــد بعد خروجى ؟ » .

قال توم : « كلا . كيف حال الجمع اليوم ؟ سمعت انهم خفضوا الأجر » .

قالت الأم : « لا يحقق اى شىء بالمرة ارجوك لاداعى للكلام فى هذا الموضوع » .

غدت الدنيا اكثر ظلاما · فاوقدت الام الفانوس ووضعت بعض دقيق الأذرة فى الماء الساخن .

ـــ « روزا شارون ، تعالى لتقلبى العصيدة ،

بالخارج كان هناك وقع أقدام تجرى . انفتح الباب بشدة واندفعت روث داخلة .

ـــ « ماما . وينفيلد مريض جدا . لونه شاحب وسقط على الارض . فقد ظل يأكل الخوخ طوال اليوم ! » .

اسرعت الام تجرى بصعوبة فى الشارع مع ابنتها الصغيرة . فقابلها رجل يحمل وينفيلد ، فاندفعت الام نحوه .

وقالت : « انه ابنى · ناولنى اياه » · · تناولت الولد الصغير ثم قالت للرجل : « شكرا لك » .

عادت الام مسرعة وارقدته على احد المراتب .

قال توم : « انه جائع . ليس لديه طاقة . احضرى له كوبا من اللبن ليشربه » .

عاد الأب وآل الى البيت يحملان بعض فروع الأشجار للنار .

قالت الام : « كم حصلنا من نقود اليوم ؟ » .

ـــ « دولار وخمسة واربعون سنتا » .

ـــ « اذن ، اذهب مباشرة الى محل البقالة واحضر علبة لبن لوينفيلد ، فهو مريض » .

فقال : « اناكل عصيدة بعد يوم عمل شاق ، هذا ظلم ! الانسان فى حاجة الى ان ياكل لحما اذا كان عليه ان يعمل ! »

قالت الام : « اجلس وانت ساكت . فهناك اشياء اخرى اكثر اهمية . آل ، هل لدينا ما يكفى من وقود السيارة ، لكى ترحل ؟ » .

قال آل : « حوالى ربع الخزان » .

ـــ « لابأس ، سوف نناقش ذلك بعد تناول العصيدة » .

عاد الأب بعلبة اللبن ، أخذت الأم العلبة وملأت كوبا وناولته لتوم » .

— « أعطه لوينفيلد » .

— « لا أستطيع أن أشربه . سأتقيأه » .

— « لا يلمس أحد منكم هذا اللبن . فهو من أجل وينفيلد يشربه فيما بعد » .

فقالت روزا شارون : « أنا لم أشرب لبنا منذ فترة . يجب أن آخذ شيئا » .

قالت الأم : « أنا أعرف ، لكنك لست مريضة مثل ذلك الولد ، والآن هيا نأكل . يمكنكم استعمال السكر مع القهوة أو العصيدة ، لكن ليس مع الاثنين » .

جلس وينفيلد ، وشرب اللبن ، ثم تناول المزيد منه ، وأعطت الأم باقي اللبن لروزا . ثم صبت القهوة في الأكواب .

قالت الأم : « والآن ، قل لنا ماذا حدث اليوم في العمل ، يا زوجي . أما أنت ياروث ويا وينفيلد أرجو

ألا تكونا قد قلتما لأى شخص عما سمعتماه ، لأن ذلك من شأنه أن يحطم عائلتنا » .

قال الأب : « لقد خفضوا الأجر كما قلت يا توم ، كان العمال الجدد في منتهى الجوع ، وكانوا على استعداد للعمل بما يحقق لهم نصف رغيف .

قلت للفراز نحن لا نستطيع أن نعمل مقابل ستين ونصف للصندوق .

فقال الفراز : « هؤلاء على استعداد للعمل . فقلت : لن يستمروا في العمل عندما يصابون بالاجهاد . قال : هذا لا يهمنا في شيء ، لأن المحصول سيكون انتهى جمعه » .

قال توم : « هل سمعت أي شيء عن الموضوع الآخر — الرجل الذي ضربته ؟ »

صمت الأب للحظة ، ثم قال أخيرا : « يبدو أنك في ورطة حقيقية . فليس للناس حديث سوى ذلك .

ولقد بعثوا برجالهم للبحث عن الشخص الذي ضربه » .

قال توم : « لكن ذلك الشخص لم يفعل ذلك الا بعد أن قتلوا كاسى » .

قال الأب : « ليس ذلك ما يقولونه ، بل يقولون ان الشخص هو الذى ضرب اولا » .

سأل توم : « هل يعرفون شكل ذاك الشخص ؟ »

– « يعنى ليس بالضبط · لكنهم يعتقدون انه لابد ان يكون .. » .

وضع توم يده ببطء على وجهه .

قال توم : « اعتقد يا امى ، انه يتحتم على ذلك الشخص أن يهرب » .

اندفعت روث قائلة : « امى ، انا ووينفيلد نعرف أن توم هو الذى فعل ذلك . ونعلم انه الشخص الذى تتكلمون عنه » .

ابتسم توم : « وذلك الشخص لايريد ان يجلب لكم المشاكل ، يا امى ، لابد ان ارحل » .

نهضت الأم واقفة على قدميها : « كلا ، لن ترحل ، سنأخذك معنا . آل ، احضر السيارة بظهرها عند مدخل الباب . سنضع مرتبة على ارضية صندوق السيارة ينام عليها توم ، وتضع باقى المراتب من فوقه ، وبذلك يمكننا ان نخفيه عن الأعين ، ستكون هناك مسافة بين المراتب ليستطيع التنفس . هذا ما سنفعله ولا جدال فى ذلك » .

احضر آل السيارة وجعل خلفيتها عند مدخل الباب ، ووضعوا المراتب وبينها توم ، ووضعوا كل ماعدا ذلك من اشياء فوق المراتب . وجاء احد الحراس المسلحين .

سأل : « ما الذى يجرى هنا ؟ » .

قال الأب : « نحن راحلون · فقد حصلنا على عرض عمل جيد بالقرب من « ويد باتش » .

اضاء الحارس كشاف بطاريته وقال : « دعونى القى نظرة . الم يكن معكم شخص آخر ؟ » .

فقال ال بسرعة : « تقصد ذلك الشخص المتقلب المزاج ؟ ذلك القصير ذو الوجه الشاحب ؟ لقد رحل هذا الصباح عندما خفضوا الاجور » .

ـ « اكان وجهه مجروحا هذا الصباح ؟ » .

قال ال : « انا لم ار اى شىء . هيا ليصعد الجميع ، فيجب ان نمضى » . ظل الحارس يراقب السيارة وهى تمضى عبر الشارع حتى انحرفت ناحية اليسار . عند البوابة اقترب الحارس من جانب السيارة » .

ـ « راحلون ؟ »

قال الْ : « نعم . راحلون شمالا . حصلنا على عمل » .

نتح الحارس البوابة وانحرفت السيارة شمالا تجاه الطريق ١٠١ . الطريق السريع الذى يربط الجنوب بالشمال .

رنع توم طرف المراتب وسال : « اى طريق تسلك ؟ اليس من الافضل ان نسير فى الطرق الجانبية ؟ »

قالت الام : « دق على كابينة السيارة ، واطلب من آل ان يتوقف » .

توقفت السيارة .. نزل آل واتجه الى خلف السيارة . وسال :

ـ « ماذا تريدون ؟ » .

قالت الام : « توم يقول ، انه من الافضل ان نسير فى الطرق الجانبية » .

واضاف توم : « بسبب وجهى . فمن الممكن لاى شرطى ان يتعرف على . واذا كنا متجهين الى الشمال ، فربما نجد انفسنا فى تلك الحالة متجهين ناحية الجنوب » .

قال آل : « لاباس ! » .

اسندت الام ظهرها الى ظهر صندوق السيارة وقالت : « عندما يكون الانسان مطاردا ينتابه احساس غريب . احساس بالوضاعة » .

قال الاب : « كلنا نشعر بالوضاعة . عندما كنا في المعسكر الحكومي لم نكن نشعر بذلك » .

انحرف آل تجاه اليمين . وتلاشت أشجار الفاكهة في تلك اللحظة ، وبدأت تظهر الحقول المزروعة قطنا على الجانب الآخر . ساروا عشرين ميلا داخل حقول القطن عبر طرق فرعية .

امتد بهم الطريق حتى عبروا جسرا من الحجر ، وواصلوا سيرهم بمحاذاة مجرى الماء على الجانب الآخر . وكشفت أضواء السيارة عن صف من الحاويات الحمراء دون عجلات (صناديق سيارات النقل الكبيرة) عند نهاية مجرى الماء .

كانت هناك لافتة على الطريق مكتوب عليها : « مطلوب عمال لجني القطن » . أبطأ آل السيارة . وتطلع توم من تحت المراتب . بعد مسيرة ربع ميل . نقر توم على كابينة السيارة مرة ثانية .

سأل آل : « ماذا تريد ثانية ؟ » .

قال توم : « أبطل المحرك وتعال الى هنا » .

خرج توم من تحت المراتب وجلس امام امه .

قال : « اسمعي يا امي . انهم يريدون عمالا لجمع القطن . عندما يتحسن وجهي ، سأكون على استعداد للعمل ، اما الآن فلا اظن ذلك . لقد رأيت تلك الحاويات هناك . من الممكن ان نعمل هناك . لكن كيف سيتسنى لنا ان نعيش في واحدة من تلك الحاويات ؟ » .

قالت الام : « لكن ماذا عنك انت ؟ » .

— « هل ترين تلك الشجيرات هناك بجوار المجرى يمكنني أن أختبىء فيها . فهي مكان مناسب . وأثناء الليل يمكنكم ان تحضروا لي شيئا آكله » .

قال الاب : « بحق الله ، كم أود أن تلمس يداي أشجار القطن . فهذا مجال العمل الذي افهم فيه » .

قالت الام : « من المحتمل أن تكون تلك الحاويات مكانا مناسبا للاقامة فيها ، لابأس بها وتقينا من المطر .

لكن هل تظن يا توم ان هذا المكان يمكن ان تختبىء فيه ؟ » .

– « بالتاكيد ، وعندما يتحسن وجهى ، سأعود اليكم » .

قال الأب : « لو اننا جميعا قمنا بجنى القطن لامكننا الحصول على بعض النقود » .

سأل آل : « والآن ، ماذا سنفعل ؟ » .

قال الأب : « عد بنا حيث توجد تلك الحاويات ، ونبيت فى السيارة حتى الصباح ، وبعد ذلك نحصل على عمل » .

سألت الأم : « وماذا عن توم ؟ »

– « لا تشغلى نفسك بى ، يا أمى ، سآخذ بطانية وعندما يحل الظلام أحضرى لى شيئا من الطعام » .

قالت الأم : « خذ حذرك ، خذ حذرك ! » .

قال توم : « بالتاكيد سأفعل » . ونزل من صندوق

السيارة . وقال لهم : « تصبحون على خير » . وأخذت الأم تراقبه وهو يختفى بين الشجيرات .

سأل آل : « هل اعود الآن الى مكان الحاويات ؟ » .

قال الأب : « نعم » .

قالت الأم : « سر ببطء ، فأنا اود ان أرى المكان الذى سيختبىء فيه توم » .

ادار آل محرك السيارة وعاد الى حيث مكان الحاويات . حيث كان الظلام يغلفها ولا أحد يتحرك .

قال آل لروزا : « اصعدى الى ظهر السيارة ، وسأنام انا فى المقدمة » . استلقى افراد العائلة جنبا الى جنب فى صندوق السيارة . ولم يسمع سوى صوت سريان المياه فى المجرى .

الفصل الثامن عشر

جنى القطن

كانت الحاويات على هيئة سفين على مساحة مسطحة بجوار المجرى وكل حاوية تستوعب عائلتين ، وليس بها نوافذ ، انما مجرد باب واسع مفتوح على الدوام .

احتلت عائلة جوود نصف احد هذه الحاويات وعلقت الام ستارة فى منتصفها .

قالت الام : « لاباس بها وجافة . لن تتخللها الامطار » .

كل ليلة كانت الام تفرد المراتب لافراد العائلة ،

وتطويها فى الصباح . كان افراد العائلة يتوجهون كل يوم الى الحقول لجنى القطن ، ويتناولون اللحم فى المساء .

فى اول يوم سبت ، توجهوا بالسيارة الى « تالير » واشتروا موقدا صغيرا ، وملابس عمل للرجال (اوفرولات) ورداء جديدا للأم . واعطت الأم افضل ملابسها الى روزا .

قالت الأم : « ان مقاسها كبير ، واذا اردنا شراء ملابس جديدة لها ، فسيكلفنا ذلك نقودا كثيرة » .

لقد كانت عائلة جوود محظوظة . فقد وصلوا فى الوقت المناسب واستطاعوا الحصول على حاوية يعيشون فيها . اما من جاؤوا بعدهم فقد نصبت لهم خيام بالقرب من المجرى .

كانت عائلة جوود على دراية بجنى القطن ، مما جعلهم يملأون الاجولة بسرعة ويذهبون بها للفرز .

فى كل مساء كانوا يعودون من الحقول وتشترى الام لحما من مخزن البقالة .

قالت الأم : « ثلاثة ارطال من اللحم وزجاجة لبن لابنتى » .

استقر الجميع فى مؤخرة الحاوية ، وبدات روزا شارون فى اشعال نار الموقد الصغير .

قالت لامها : « هل احضرت اللبن ؟ ناوليه لى ، فانا لم اشرب لبنا منذ الصباح » .

سألتها الأم : « هل جهزت البطاطس ؟ » .

— « هاهو » .

قالت الأم : « سنحمرها مع اللحم » .

ذهب الرجال للاغتسال فى المجرى . اما روزا فقد وضعت البطاطس فى المقلاة ، وانشغلت المرأتان امام الموقد .

تسلل وينفيلد عبر الباب .

وقال : « ماما . . ! »

— « ماذا ؟ »

— « ماما . . لقد حكت روث موضوع توم » .

حملقت فيه الأم وانحنت امامه وقالت : « قل لى يا وينفيلد . . ماذا قالت ؟ » .

— « كان بعض الأطفال يتشاجرون ، وفقدت روث اعصابها وضربت واحدا منهم . بعد ذلك ضربتها فتاة كبيرة ، فقالت روث انها ستحضر اخاها الأكبر الذى سبق وقتل شخصين ليضربها . وعندما قالت لها الفتاة انك كاذبة . قالت لها روث ان اخاها مختبىء الآن بسبب قتله شخصا .. وعندما يعود من مخبئه ، سيقتل عائلة الفتاة ايضا .. » .

قالت الأم : « اوه يا الهى الرحيم . ما الذى يجب علينا ان نفعله الآن ؟ » ووضعت يديها على راسها ، ثم قالت : « اذهب الآن يا وينفيلد وابحث عنها واحضرها الى هنا » .

وما ان خرج الصبى مسرعا حتى عاد الأب .

فقالت له الأم بهدوء : « اود ان اقول لك شيئا » .

لقد افشت روث سر توم وما فعله .. بسبب شجارها مع الأطفال . وهى لا تدرك ماذا فعلت بالطبع . الآن اريدك ان تبقى هنا وتتسمع او ان احدا قال شيئا . ساخذ الطعام الى توم واخبره ان يكون حذرا .

فى تلك اللحظة وصلت روث ومن خلفها وينفيلد . كان وجهها قذرا والدماء تقطر من انفها . وعندما لاحظت وجه امها المكفهر ألقت بنفسها بين ذراعى امها وبدات فى البكاء والنشيج .

قالت الام : « هس ، انت لم تدركى خطورة ما فعلت . دعينى الآن . فلابد ان اذهب » .

اتجهت روث الى ركن الحاوية ، فى حين غطت الام طبق الطعام بقطعة من ورق الجرائد .

وقالت للأب : « تناول انت طعامك . اما أنا فسأتناول طعامى عندما اعود » .

سارت الام بهدوء عبر صف الخيام . ثم توقفت

والتفتت خلفها . لم يكن هناك احد يراقبها . تعاودت سيرها بهدوء بين الأشجار .

ظلت سائرة حتى استطاعت ان ترى مدخل الكهف الذى يختبىء فيه توم . عبرت السماء سحابة سوداء وسقطت بضعة قطرات من المطر ، وانتابتها قشعريرة عندما هبت موجة ريح باردة بين الأشجار .

سمعت الام صوت خطوات هادئة . وظهر شبح مظلم عند مدخل الكهف . فنادت الام بصوت خفيض : « توم .. توم ! » .

— « أهو انت ، يا امى ! » .

— « نعم ، جئت لأراك ، يا توم واتحدث معك » .

— « ادخلى اذن . تقدمى .. اين انت ؟ » .

— « إنا بجوارك يا توم . هاك الطعام » .

رفع توم قطعة الورق من فوق الطبق وبدا يأكل .

قال توم : « لحم ، وبطاطس محمرة ساخنة !! » .

قالت الأم : « توم ، لقد تشاجرت روث اليوم وحكت كل شيء عنك . عن سر اختبائك لانك قتلت رجلين . توم يجب ان نرحل من هنا . وبالطبع سوف يتكلم الناس عن ذلك . كيف حال وجهك ؟ » .

ـ « يتحسن بسرعة » .

ـ « اقترب منى يا توم ودعنى أتحسسه . لقد اصبت بجرح غائر كما ان انفك مازالت متورمة » .

ـ « ربما يكون ذلك فى صالحى . فلا يتعرف على احد » .

ـ « لابد ان نرحل من هنا ، ياتوم » .

ـ « أجل ، أعرف ذلك » .

ـ « ها هى سبعة دولارات · يمكنك ركوب اتوبيس وتبتعد من هنا » .

ـ « لن آخذ اى نقود » .

فقالت الأم : « توم · لابد ان تأخذ النقود · فانت

فى حاجة اليها . اذهب الى مدينة كبيرة فى اى مكان ، ولن يبحثوا عنك هناك » .

قال توم بهدوء : « اسمعى ، يا امى ، اثناء وجودى هنا وحدى فكرت فى كثير من الامور . فكرت فى كاسى وفيما كان يقوله . قال ذات مرة ، لا نفع فى المرء اذا عاش لنفسه . لابد ان نعمل كلنا سويا . وانا مقتنع بذلك تماما » .

قالت الأم : « كان كاسى انسانا طيبا . لكن ما الذى تنوى ان تفعله ، يا توم ؟ » .

ـ « سأفعل ما فعله كاسى . سأدعوا أهلنا للعمل سويا وان يحافظوا على انفسهم . الجميع يعملون سويا حتى نستطيع أن نزرع ارضنا نحن مرة ثانية » .

ـ « سوف يتصيدونك ، يا توم . مثلما فعلوا مع كاسى » .

ـ « سوف يتصيدونى باى وسيلة · فهم يتصيدون كل أهلنا » .

قالت الأم خلال الظلام : « كيف يتسنى لى ان اعرف مكانك ، يا توم ؟ فربما قتلوك . كيف يتسنى ان اعرف ؟ » .

ضحك توم .

— « ومن المحتمل الا يستطيعوا قتلى . سأظل على قيد الحياة حتى يقاتل هؤلاء الجوعى من اجل الطعام . سأظل على قيد الحياة حتى يأتى اليوم الذى يقوم فيه هؤلاء بزراعة أراضيهم مرة ثانية . ويعيشون فى بيوتهم . هل فهمت ؟ انا أتحدث الآن مثل كاسى . ان الانسان يفكر فى كثير من الأمور عندما لا يكون باستطاعته أن يتحرك فى الجوار . والآن عودى يا امى » .

— « اذن ، خذ هذه النقود . وعدنى يا توم ، أن تعود فيما بعد سوف تجدنا ! » .

— « بالتأكيد . من الأفضل لك الآن أن تعودى . ناولينى يدك . وداعا » .

امسك توم بيد امه وقادها الى مدخل الكهف .

قالت له : « وداعا » وسارت بهدوء الى الخارج . كانت عيناها محمرتين تترقرق فيها الدموع ، لكنها لم تبك .

اثناء سيرها بدأ المطر يسقط ببضع قطرات ثقيلة . وصلت الأم الى الطريق ، وسمعت خلفها خطوات . نظرت الى الخلف فرأت ضوءا . وخلال لحظة واجهها رجل .

قال : « مساء الخير . يبدو ان الدنيا ستمطر » .

— « لا أتمنى ذلك . لأن جنى القطن سيتوقف . ونحن فى حاجة للجنى » .

قال الرجل : « وانا ايضا فى حاجة للجنى . لدى عشرون هكتارا من القطن ، وأنا فى حاجة لعمال لجنيها » .

قالت الأم : « نحن خمسة . والمنطقة التى نعمل بها لم يعد بها مساحات كثيرة للجنى » .

— « سأضع لافتــــة على بعد ميلين على هــذا الطريق · وأنا الآن ذاهب الى المعسكر » ·

— « سنكون عندك فى الصباح · كل ما أرجوه ألا تمطر » ·

وصلا الى المعسكر فقالت له الأم : « سنكون عندك صباح الغد » ·

توجهت الى الحاوية ودخلتها ، وقالت لزوجها : « لدينا عمل غدا » · ثم ألقت بالتحية الى السيد « وينرايت » الذى كان يجلس مع زوجها ·

كان « وينرايت » هو الرجل الذى يعيش بعائلته معهم فى نصف الحاوية ويفصلها ستارة ·

سألها « وينرايت » : ألا يمكن أن نقوم بالجنى هناك أيضا ؟ » ·

قالت الأم : « ولم لا ، بالتأكيد · فالرجل الذى قابلته يبحث عن عمال · ويمكنكم أن تركبوا الســيارة معنا » ·

قال الأب : : وينرايت لديه مشكلة · وهذا هو السبب فى وجوده لدينا » ·

— « ماذا حدث ؟ » ·

أطرق وينرايت ببصره الى الأرض وقال : « ابنتنا أجيبى ، فتاة ناضجة فى حوالى السادسة عشرة من عمرها ، تتجول هى وابنكم آل طوال الليل · وأخشى أن تقع فى مشكلة ، فماذا يكون الحل ؟ » ·

فردت الأم احدى المراتب وجلست ، ثم قالت : « آل ، فتى مؤدب ولم أكن أتمنى أفضل منه » ·

— « نحن نحب آل ، لكن ماذا يحــدث لو أنكــم رحلتم ، أو نحن رحلنا · ثم اكتشــفنا أن أجيبى فى ورطة ، لا نود أن يلحق بعائلتنا أى عار » ·

— « أرى أنه لن يلحق بكم أى عار بسببنا ·· سوف يتحدث زوجى مع آل · واذا لم يرغب ، فسأتولى أنا الحديث معه » ·

قال وينرايت : « تصبحون على خير • ونحن على ثقة من ذلك • شكرا » • ثم اتجه الى الجانب الآخر من الحاوية مارا بجانب الستارة • واستطاعت الأم وزوجها ان يسمعاه يتحدث الى زوجته بصوت خفيض •

قالت الأم بصوت منخفض : « لقد وجدت توم •• وطلبت منه أن يرحل بعيدا! • ولد طيب » •

ثم اضافت قائلة : « انا اسفة ، لم يكن ينبغى على ان اقول اننى ساتكلم مع آل • فهذا شانك انت » •

قال الأب : « أعرف • فانا لم يعد لى فائدة الآن • انفق كل وقتى فى التفكير فيما صارت اليه الأمور • شىء غريب ، فالنساء أصبحن يقررن أمور العائلة •• انا لم أعد أهتم بذلك » •

قالت الأم : « المرأة تستطيع ان تصرف الأمور افضل من الرجل • وعلى كل لا تقلق ، فربما نستطيع العام القادم ان يكون لنا مكان خاص بنا نأوى اليه » •

قال الأب : « لن يكون لدينا مكان خاصة بعد أن

ينتهى العمل • لا عمل فى كاليفورنيا فى فصل الشتاء • وروزا سوف تلد طفلها • يبدو أن حياتنا قد انتهت عند هذا الحد » •

قالت الأم وهى تبتسم : « كلا ، لم تنته بعد ، لم تنته ، وهذا شىء تعرفه النساء • لن يصير مآلنا الى الهلاك » •

سمعت بضعة خطوات بالخارج ، بعدها وصل آل •

قالت الأم : « آل ، كنا نتحدث بخصوصك • تعال واجلس هنا » •

ـ « وانا كذلك كنت أود أن اتحدث معكم • سأرحل قريبا جدا • فانا وأجيبى وينرايت اتفقنا على الزواج • سوف أحصل على عمل فى جراج ونستأجر بيتا • هذا ما سوف نفعله ، ولا يستطيع أحد أن يمنعنا من ذلك » •

حملقا فيه ••

قالت : « نحن سعداء بذلك ، يا آل · فأنت رجل ناضج ، وفى حاجة لزوجة · لكن نرجوك أن تبقى حتى الربيع ، فمن سيقود السيارة ؟ » ·

أطلت السيدة وينرايت من خلف الستارة ، وقالت لزوجها : « هل سمعت ؟ سوف يتزوجان · الأمر يستحق أن نصنع كعكة ! » ·

فقالت الأم وهى تقف : « ساضع القهوة على النار ، واصنع كعكة » ·

فأجابتها السيدة وينرايت : « وانا لدى سكر · يمكنك أن تستخدميه » ·

أشعلت الأم الموقد · وجلست روث ووينفيلد فى الركن حيث كانا نائمين ·

وبينما كانت الأم تقوم بصناعة الكعكة دخلت روزا شارون ·

سألت : « ما الذى يحدث ؟ » ·

قالت الأم بفرحة : « لدينا أخبار طيبة · سنقيم حفلا · آل واجيبى سيتزوجان ! » ·

ظلت روزا شارون واقفة وتطلعت الى آل · بينما قالت السيدة وينرايت للأم : « اجيبى ترتدى فستانا جديدا ، ستكون معكم خلال دقيقة » ·

استدارت روزا شارون ببطء وتوجهت ناحية الباب ودلفت الى الخارج · سارت ببطء فى اتجاه المجرى وسط الأشجار ، كانت الريح تهب فى تلك اللحظة ·

ركعت روزا شارون على ركبتيها واخذت تزحف بين الشجيرات · وعندما أحست بأن الشجيرات تحيطها من كل مكان توقفت وتمددت على ظهرها وأحست بثقل الطفل فى بطنها ·

الفصل التاسع عشر

الأمطـــار

استيقظت الأم بعد أن دفعت الغطاء بعيداً عنها · اتجهت ناحية الباب وأخذت تتطلع الى الخارج · كان هناك قليل من الضوء ينبعث من جهة الشرق ، والريح تهب والندى يملأ الهواء · أصابتها قشعريرة · بعد ذلك استدارت عائدة واشعلت الفانوس · وقامت بتكسير بعض الحطب وسرعان ما كانت النار مشتعلة ·

نهضت روزا شارون جالسة وقالت : « سوف أقوم بجنى القطن » ·

ـ « ليس بك حاجة لفعل ذلك » ·

ـ « بل سأذهب » ·

قالت الأم : « لا بأس · لكن لا تجهدى نفسك فانت على وشك الوضع » ·

وضعت الأم اللحم فى وعاء الطهى ، وبدأت الحركة تدب ببطء فى أفراد العائلة ·

قالت لهم الأم : « هيا اذهبوا لتغتسلوا » ·

قال آل : « ما الداعى للاستيقاظ مبكرا هكذا ؟ فنحن لا يمكن أن نقوم بجنى القطن فى الظلام ، يا أمى ! » ·

قالت الأم : « انها عشرون هكتارا فقط ، ومن الأفضل أن نصل الى هناك مبكرا قبل ان يتم جنيها · عندما تكون مستعدا يا آل ، أدر محرك السيارة » · ثم نادت على جارتها : « هل أنت جاهزة يا وينرايت ؟ » ·

ـ « مجرد ان آكل ، ساكون جاهزة خلال دقيقة » ·

تطلعت الأم بأسى ناحية روزا شارون وقالت : « خذى بطانية معك ، حتى اذا أردت أن تستريحى ، ستجلب لك الدفء » .

زأر محرك السيارة ، وصعدت اليها عائلة ويترايت وعائلة جوود .

قالت الأم : « سنكون أول من يصل الى هناك » .

مضت السيارة خلال الطريق المظلم ، وعندما وصلوا الى اللافتة المكتوب عليها (مطلوب عمال لجمع القطن) كانت الساحة مليئة بالسيارات عن آخرها .

قال آل : « لم نصل مبكرين كما كنا نظن » .

سجل صاحب المزرعة الأسماء فى كراسة . ثم قال : « الآن ، يمكنكم أن تنطلقوا الى العمل . والضوء كاف للرؤية » .

كانت هناك سيارات ما تزال تصل من الطريق السريع . وتحركت صفوف من الناس عبر الحقول ، رغم أن الريح الشديدة كانت تضرب ملابسهم .

القى الأب نظرة سريعة على التلال الغربية ، فرأى سحبا سوداء ثقيلة تتحرك فوقها ، فقال : « يبدو انها على وشك أن تمطر » . فتطلع كل العاملين خلفهم ناحية السحب . وزاد انحناؤهم وأخذوا يجمعون القطن بأسرع ما يمكن . كانوا يسابقون المطر ويسابق بعضهم بعضا . وما لبثت السحب السوداء الثقيلة أن تحركت فى السماء تجاه الشمس المشرقة .

فى الحادية عشرة كان حقل القطن قد اكتمل جنيه وانتهى العمل . ووقف العمال فى صف ليقبضوا أجرهم . وعادت العائلات الى سياراتها فى صمت . وانطلقت السيارات عائدة ببطء .

وما كادت عائلة جوود وعائلة ويترايت تصعدان الى السيارة ، حتى بدأت أول قطرات المطر فى السقوط ، وكانت الأم وروزا شارون تجلسان فى كابينة السيارة .

قالت الأم عندما رأت روزا ترتجف فجأة : « لم يكن ينبغى أن تحضرى معنا » . لكن روزا لم ترد عليها .

صرخت الأم قائلة : « أسـرع ، يا آل ، فروزا ترتجف • لقد أصـيبت بنزلة برد • ويجب أن نضـع قدميها فى ماء ساخن » •

قاد آل السيارة بسرعة الى معسكر العاويات •

قالت الأم : « ليذهب الرجـال لاحضـار بعض الخشب • ينبغى أن نتدفأ » •

حاولت روزا شارون السـير ، لكن سـاقيها لم تتحملاها • وعندما رأتها السيدة وينرايت سألت أمها : هل حان ميعاد ولادتها ؟ » •

فأجابت الأم : « كلا ، لا أعتقد ذلك • ربما أصيبت بنزلة برد • ساعدينى لو سمحت ؟ » •

فقامت المرأة بمسـاعدة روزا حتى وصـلت الى الداخل ، وقالت : « سأشعل النـار حالا » • فى تلك الأثنـاء كانت الأمطار تهطل بشـدة وتضرب سـقف العاوية •

قالت الأم : « حمدا لله أن لدينا سـقفا متينا •• فالخيام عادة ما تنهار » •

قالت روزا : « غطينى يا أمى ، فأنا أشعر ببرودة شديدة » • وضعت الأم كل البطاطين الموجودة فوقها • فى تلك اللحظة عاد الرجال وأذرعهم محملـة بكومات من الخشب •

قال الأب : « يا الهى ، المنطقـة كلها اكتسـحها المطر » •

قالت الأم : « من الأفضـل أن تعودوا وتجلبوا مزيدا من الخشب ، فسرعان ما سيحل الظلام • أما أنت يا وينفيلد وروث فابقيا هنا » •

ظل المطر يهطل ساعة بعد ساعة • وأحضر الرجال المزيد من الخشب وكوموه بجوار الباب • وكانت ثيابهم تقطر ماء •

قالت الأم : « والآن ، اخلعـوا هـذه الملابس ،

وساعد لكم شيئا من القهـوة ، اثناء ارتدائكم ملابس جافة » ٠

وسرعان ما حل المساء ٠ وجلست العائلتان داخل الحاوية تنصتان الى صوت المطر المنهمر فوق السقف ٠

* * *

فى اليوم الثانى للمطر انزل آل الســتارة التى تفصل بين نصفى الحاوية وغطى بها محرك السيارة ٠ وبذلك اصبحت العائلتان عائلة واحدة ٠

وفى كل انحاء المعسكر شكلت المياه بركا صغيرة ، واختلط الطين بمياه الأمطار ٠ ارتفع منسوب ميـاه المجرى المائى وفاض حتى وصل الى مستوى القواعد التى توجد عليها الحاويات ٠

فى اليوم الثالث اصـاب القلق والتوتر عائلـــة وينرايت ٠٠ فقالت السيدة وينرايت : « اعتقد انه يكون من الأفضل ان نغادر المكان » ٠ حاولت الأم ان تبقيهم ، وراقبت رد فعل آل ٠ اما روزا شارون فقد ارتفعت درجة

حرارتها نتيجـــة نزلة البرد الثقيلة التى اصابتها ٠٠ حاولت الأم ان تسقيها بعض اللبن لكنهـــا رفضت ، وهزت راسها بوهن ، وقالت : « انا جوعانة » ٠

كان الرجال يراقبون ارتفاع منسوب الميـاه فى المجرى ، وقال الأب : « لو ارتفع المنسوب اكثر من ذلك فسوف تدركنا المياه فى الحاويات ٠ لكننا لو قمنا بتدعيم الجسر وتعليته ، فاعتقد ان الأمر سيكون على ما يرام ٠

قال وينرايت : « اعتقد انه من الأفضل ان نرحل بعيدا عن هنا » ٠

قال آل : « ابى ، لو رحلوا ، فسارحل معهم انا ايضا ٠ فانا واجيبى لابد ان نكون معا » ٠

اصابت الأب الدهشة وقال : « لا تستطيع الرحيل ، يا آل ٠ فالسيارة ٠٠٠٠ ولن يكون بامكاننا الحصول على مكان افضل من هذا ٠ دعك من ذلك الآن ٠ دعنا نتحدث فى ذلك الأمر مع الآخرين » ٠ وتوجهـا الى الحاوية المجاورة ٠

كانت الأم تجلس أمام الموقد ، وتحافظ على اشتعال النار بتغذيتها بالأخشاب من حين لآخر .

قالت روث : « أنا جوعانة . ولا يوجد أي شيء نفعله ولا أي تسلية » .

قالت الأم : « سيكون كل شيء على ما يرام .. اهدئي ، ولا تضايقيني الآن يا روث ، فروزا مريضة » .

أطلقت روزا صرخة سريعة حادة ، وأمسكت أنفاسها وامتلأ وجهها رعبا .

صرخت الأم : « سيدة وينرايت ! . انظري ! » . وأشارت الى وجه روزا ، « ربما يكون موعد ولادتها قد حل . لكن ما زال أمامها فترة ، أو تكون الحمى قد عجلت بموعد الولادة ؟ » .

قالت السيدة وينرايت : « من الأفضل أن تنهض على قدميها وتتمشى قليلا .. هيا .. أغلقوا الباب .. ماحضر مصباحنا ، وأنت يا روث ووينفيلد اذهبا عند نهاية الحاوية واجلسا مع أجيبي » .

ـ « أريد أن أرى ، يا أمي ، أريد أن أرى روزا شارون وهي تلد طفلها » .

ـ « اذهبي الآن ، يا روث .. اذهبي بسرعة ! » .

وقف كل من روث ووينفيلد خلف كومة الخشب .

وقالت روث لوينفيلد : « لا تحدث أي ضجة . يمكننا أن نشاهد كل شيء أثناء انشغال أمي » .

قالت الأم لروزا : « ستلدين طفلا جميلا . هيا انهضي وتمشي .. حاولي ، سوف نساعدك » . ثم رفعتها الأم من ناحية والسيدة وينرايت من الناحية الأخرى .

تصلب جسم روزا شارون وأطلقت صرخة ألم . أرقدوها على المراتب حتى زال الألم . ثم ساعدوها مرة ثانية على الوقوف وبدأت تتمشى .

أطل الأب من خلال فتحة صغيرة ثم تساءل : « لماذا أغلقتم الباب ؟ » .

قالت الأم : « حل ميعاد ولادتها »

ـ « اذن فلن نستطيع الرحيل من هنا .. يجب علينا اذن تقوية الجسر وتعليته » .

ـ « هذا صحيح . يجب ان نفعل ذلك » .

سار الأب فى الطين الى المجرى . كان يقف هناك اثنا عشر رجلا . صاح فيهم الأب : « يجب علينا تعلية الجسر . فقد داهمت ابنتى آلام الوضع .. هيا نبدأ الآن » .

قال رجل طويل : « ومالنا نحن .. يمكننا الرحيل » .

قال الأب : « بالتأكيد . يمكنك الذهاب . ولا احد يمنعك » .

اسرع الأب متجها ناحية الجزء المنخفض من الجسر ودفع بالمجرفة فى الطين . وبدأ الرجال العمل الى جانبه . كان الرجال يعملون بحماس . وعندما

كان اى رجل ينحى جاروفه جانبا ، كان آخر يتناوله منه .

ندت صرخة من الحاوية التى تسكنها عائلة جوود . توقف الرجال واخذوا يتسمعون للحظة ، ثم عادوا للعمل ثانية .

غمرت المياه ببطء الجانب الذى يقومون بتدعيمه .

فصاح الأب : « يجب ان يكون أعلى من ذلك .. أعلى ! » .

حل المساء وما زال الرجال يعملون ورغم ان التعب حل بهم الا انهم واصلوا العمل مثل الماكينات ، حتى حل الظلام . فقامت النساء بوضع الفوانيس على ابواب الحاويات .

فى تلك الأثناء كانت آلام روزا شارون تزداد حدة . فأخذت تصرخ وتصرخ . وكانت النسوة يدخلن ، ويتطلعن اليها باشفاق ، ثم يعدن مرة ثانية الى حاوياتهن . واستمرت صرخاتها لفترة طويلة ،

واخيرا ، حدث صمت · واخذت الأمطار تتساقط بشكل مستمر ·

قال الأب : « من المفروض أن تقول لى زوجتى اذا كان الطفل قد ولد أم لا » · واستمر فى الحفر فى الطين ·· وحدث صوت فرقعة · فقد سقطت شجرة ضخمة فى المجرى ، ثم اخذت تتحرك ببطء مع التيار · ولاحظ الرجال أن افرع الشجرة اثناء سقوطها هدمت ما قاموا به من تعلية للجسر ·

بدأت المياه تتراكم خلف الشجرة ثم بدأت تسيل من فوق الجسر · تراجع الرجال وأسرعوا بالعودة ، وجرت المياه ببطء على الأرض المسطحة وتسللت تحت الحاويات وتحت السيارات ·

اندفع آل ناحية السيارة · ورفع الغطاء من فوق المحرك وحاول ادارته · حاول وحاول لكن المحرك كان مليئا بالماء · كانت هناك سيارات دارت محركتها لكن عجلاتها غاصت فى الطين الى اقصى ما يمكن ·

دخل الأب الحاوية من خلال الفتحة الموجودة بها وسأل : « كيف حالها ؟ » · تطلعت الأم الى أعلى والى أسفل وقالت : « أعتقد أنها على ما يرام · هى نائمة الآن » ·

قادت السيدة ويفرايت الأب الى صندوق فى أحد أركان الحاوية ورفعت الفانوس فوق الصندوق ·

وقالت : « اذا لم يتنفس الطفل ، فلن تكتب له الحياة » ·

سار الأب ببطء تجـاه الأم · فتطلعت اليه الأم للحظة ، بعينين واسعتين ·

قال الأب : « لقد بذلنا اقصى جهدنا ·· عملنا طوال الليل · لكن المياه تسللت تحت السيارات الآن » ·

قالت الأم : « أعرف ·· فقد سمعتها » ·

ـ « نحن لا نعرف القدر الذى سترتفع به المياه · ربما غمرت السيارة » ·

— « أعرف » .

— « هل ستكون روزا على ما يرام ؟ هل هناك شيء يمكن أن نفعله ؟ » .

— « كلا . كان هناك شيء واحد فقط ينبغى علينا أن نفعله ، وقد قمنا بتأديته » . قالت الأم ذلك ونظرت الى الأب بإبتسامة مليئة بالتعاطف والحب ، ترتسم على شفتيها البيضاوين .

سمع من الخارج صوت غاضب :

— « أين ذلك الأحمق جورد . لولا فكرته الحمقاء تلك عن تعلية الجسر ، لكنا الآن بعيدا عن هذا المكان ! » .

وسمع صوت آل رهو يرد عليه : « اذا كان لابد أن تدخل فعليك أن تقاتلنى أولا » .

نهض الأب ببطء واتجه ناحية الباب .

— « انتظر ، يا آل ، فأنا قادم » . ثم قال للرجال الثائرين « لدينا انسانة مريضة بالداخل » .

قالت السيدة وينرايت للأم : « لماذا لا تنامين قليلا . سأجلس أنا الى جوارها » .

ابتسمت الأم وقالت : « لقد كنت فى غاية الود ، ونحن نشكرك على ذلك » .

— « لا داعى للشكر . فلو حلت بنا مشكلة ، لكنتم ساعدتمونا » .

قالت : « نعم . هذا واجب . كان كل ما يعنينا فى فترة ما هو العناية بأمر العائلة . أما الآن فنحن نعتنى بأى انسان ، وكلما ساءت الأمور ، كلما تحتم علينا أن نقدم المزيد من العطاء لبعضنا البعض » .

تمددت الأم على المرتبة بجوار ابنتها . وجلست السيدة وينرايت على الأرض ، وظلت مستيقظة تراقب .

الفصل العشرون

في الحظيرة

جلس الأب وال عند الباب يترقبان حلول الفجر · ورغم ان المطر قد توقف الا ان السماء كانت ملبدة بغيوم كثيفة · وعندما بزغ ضوء النهار اتضح لهما أن فيض المياه ما زال يرتفع ·

سأل ال : « هل تعتقد ان المياه ستدخل الى الحاوية ؟ » ·

قال الأب : « لا ادرى ، فربما تمطر ثانية » ·

قال ال : « اعتقد ان المياه ستصل الى داخل الحاوية بارتفاع حوالى ثلاثة او اربعة أقدام » ·

— « ربما » ·

— « لن نتمكن من الرحيل من هنا ·· يمكننا استخدام عوارض صندوق السيارة لنصنع منها مصطبة داخل الحاوية · وبهذه الطريقة يمكننا أن نحتفظ بكل شيء جافا » ·

قال الأب : « من الأفضل أن نفعل ذلك ، فالمياه تزداد ارتفاعا » ·

تقلبت الأم بقلق اثناء نومها ، ثم صاحت : توم ، آه ، يا توم ! ·

نهضت السيدة وينرايت وأشارت الى الصندوق ، حيث يرقد الطفل الميت مغطى بقطعة من القماش ·

— « ان وجوده يسبب حزننا وأسى هنا ·· الا يمكنكم دفنه ؟ » ·

قال الأب : « انت على صواب فعلا ·· صحيح أن ذلك مخالف للقانون لكنني سأفعله » ·

تناول الأب جاروفا وناولته السيدة وينرايت الصندوق · وعندما عاد الأب من مهمته ، كان آل يعمل

في فك عوارض السيارة ، فساعده أبوه في حملها الى الحاوية .

جلست الأم وقالت : « ما الذي تفعلانه ؟ » .

— « سنقوم بعمل مصطبة . وبهذه الطريقة نحتفظ بكل شيء بعيدا عن البلل . فالمياه ترتفع طول الوقت » .

قالت الأم : « لابد أن نرحل من هنا » .

قال آل : « لا نستطيع .. فالسيارة معطلة ، ثم كيف نتركها وهي كل ما نملك ؟ » .

نظرت الأم الى الأب وقالت : « من الأفضـــل أن تذهب الى مخزن البقالة فنحن بحاجة لشــراء بعض الطعام للافطار » . ثم عادت الى المرتبة وتطلعت الى روزا شارون .

وسألتها : « كيف حالك ؟ » .

— « متعبة ، متعبة جدا يا أمي ... » .

— « أعرف ، لكن ماذا تريدين يا روزا ؟ » .

— « هل .. هل الطفل على ما يرام ؟ » .

ارتكزت الأم بركبتيها على المرتبة وقالت : « يمكنك انجاب المزيد ، لقد بذلنا ما في وسعنا » .

تراجعت روزا الى الخلف بظهرها وغطت عينيها بذراعيها .

عندما عاد الأب بالطعام ، أشعلت الأم النار بما تبقى من قطع الخشب .

سألته الأم : « هل تبقى لنا أي نقود ؟

قال الأب : « لا » .

تنهدت الأم وقالت : « والآن ، ماذا سنفعل ؟ » .

بينما كانوا يأكلون كانت المياه تتسلل وتأخذ في الارتفاع .

تناول الأب وآل الطعام بسرعة ، ثم قاما بعمل المصطبة ، بعرض خمسة أقدام وبطول ستة أقدام ، وبارتفاع أربعة أقدام عن الأرضية . كانت المياه في تلك اللحظة تتحرك على الأرضية . وفي الخارج بدأ المطر يهطل ثانية .

قال آل : « هيا نقوم الآن بوضع المراتب والبطاطين فوق المصطبة » .

ثم قاموا برفع روزا شارون بمرتبتها ووضعوها فوق كل هذه الأشياء . وفى الناحية الأخرى من الحاوية قامت عائلة وينرايت ببناء مصطبة لهم .

تطلعت الأم الى أسفل . كانت المياه بارتفاع نصف بوصة على الأرضية فى تلك اللحظة . فقالت فجأة : « لابد أن نرحل من هنا » .

قال الأب : « لا نستطيع ،فكل حاجياتنا هنا » .

* * *

خلال فترة النهار والليل ، كانت المياه قد ارتفعت بمقدار ست بوصات على أرضية الحاوية .

فى صباح اليوم الثانى ، أخذ الأب يخوض أرض المعسكر المليء بالماء ، وعاد ومعه عشر حبات من البطاطس فى جيبه . ورأته الأم يكسر جزءا من جانب الحاوية ليشعل نارا . وتناولت الأسرة البطاطس المسلوقة الساخنة بأصابعها .

عندما انتهت الوجبة الأخيرة شرعوا فى خوض المياه العكرة بحثا عن شيء يأكلونه . لم يناموا لفترة طويلة .

وفى الصباح قالت الأم : « سوف نرحل من هنا ، الى مكان أعلى . وبامكانكم أيها الرجال أن تأتوا ، أو تبقوا ، لكننى سآخذ روزا والأطفال بعيدا عن هنا .

قال الأب بوهن : « لا نستطيع » .

— « لا بأس اذن . لكن ينبغى أن تساعد روزا شارون فى الوصول الى الطريق السريع ثم تعود ثانية » .

قال آل : « أنا لن أرحل ، يا أمى ، فأجيبى وأنا .... » .

ابتسمت الأم وقالت : « بالطبع .. ابق أنت هنا ، لترعى حاجياتنا ، يا آل . وعندما تنحسر المياه ، سوف نعود . هيا ، يا روزا شارون . سوف يحملك أبوك حتى الطريق » .

وقف الأب وسط الماء ينتظر · ساعدت الأم روزا شارون فى النزول من فوق الصطبة وحملها الأب وسار بها عبر المياه العميقة حتى وصل الى الطريق السريع · اوقفها على قدميها وعاد ليحمل روث ، بينما كانت الأم تقف وسط الماء ·

قالت الأم : « اجلس على كتفى يا وينفيلد · وأنت يا ال · اذا حضر توم قل له اننا سوف نعود ثانية · قل له أن يكون حذرا » · ثم مضت تسير فى الماء

وقفوا على الطريق السريع ، والقوا نظرة على السيارة والحاوية والمياه التى تتحرك ببطء · وبينما هم واقفون بدأت السماء تمطر قليلا ·

قالت الأم : « ينبغى أن نمضى فى الطريق ·· حاولى أن تمشى يا روزا » ·

قال الأب متألما : « الى أين انتم ذاهبون ؟ الى أين ؟ » ·

_ « لا أدرى ·· هيا ، ساعد روزا · سنذهب الى اى مكان يحمينا من المطر » ·

ساروا ببطء على الطريق ·· غدت السماء أكثر عتمة وبدأ المطر يسقط بشدة ·

قالت الأم : « لابد ان نسرع · فلو ان هذه البنت أصابها البلل فلا أدرى ماذا سيحدث لها » ·

بعيدا عن الطريق وفوق تل صغير ، كانت توجد حظيرة ·

قالت الأم : « أنظروا ! ·· سنذهب الى هناك ، أعتقد أن هذه الحظيرة ستكون جافة · أسرعوا ، فهناك مزيد من المطر قادم » ·

هبت العاصفة ، وسقطت الأمطار الغزيرة فوقهم · مشوا عبر الطين بصعوبة حتى وصلوا الى أعلى التل · انزلقت قدم روزا شارون · توقف الأب للحظة وحملها · واخيرا وصلوا الى الجزء الخلفى من الحظيرة والمطر يسقط بغزارة فوق السطح · وضع الأب روزا شارون فوق صندوق قديم ·

قالت الأم : « ربما يكون هناك بعض القش بالداخل · انظر ، ها هو باب » ·

فتحت الباب ثم قالت بفرح : « يوجد قش ! . احضرها الى هنا ، وانتم أيها الصغار تعالوا هنا ! » .

قال وينفيلد : « انظـرى يا أمى ! . هنـاك فى الركن » .

تطلعت الأم .. كان هناك شخصان : رجل مستلق على ظهره وصبى يجلس الى جواره . نهض الصبى واقفا ببطء . وسأل : « هل أنتم أصحاب المكان ؟ » .

قالت الأم : « لا .. لقد جئنا الى هنا لنحتمى من ماء المطر .. معنا فتاة مريضة . هل لديكم بطانية جافة ، نستطيع استخدامها ؟ » .

ذهب الصبى الى الركن وأحضر بطانية قذرة .

قالت الأم : « شـــكرا لك .. ما حكاية ذلك الرجل ؟ » .

قال الصبى : « انه مريض .. يكاد يموت من الجوع . لم يأكل منذ ستة أيام ! » .

اتجهت الأم ناحية الركن وتطلعت الى الرجل ثم سألت الصبى : « أهو أبوك ؟ » .

ـ « نعم .. أعطانى كل الطعام . لقد أصابه الضعف . لا يستطيع التحرك » .

قالت الأم : « سيكون على ما يرام . انتظر فقط حتى أخلع الملابس المبتلة عن ابنتى » .

رفعت الأم البطانية كساتر بينما كانت روزا شارون تخلع ملابسها ، ثم لفت البطانية حولها .

وفجأة قال الصبى : « أبى يمـوت ، يموت من الجوع . لابد أن يحصل على شيء من اللبن ... » .

قالت الأم : « هس ! » . ثم نظـرت الى روزا شارون .. والتقت عيون المرأتين ، وتسارعت أنفاس روزا وقالت : « نعم » .

ابتسمت الأم : « كنت على يقين بأنك ستوافقى ، كنت أعرف » .

همسـت روزا شارون وقالت : « أيمكنكم .. أيمكنكم الخروج جميعا » .

نهضت الأم بسرعة وقالت : « هيا بنا جميعا .. وأنت تعال معى أيها الصغير » .. ثم انحنت وقبلت روزا

على جبهتها · ودفعت الآخرين الى الخارج بسرعة وأغلقت الباب خلفها ·

جلست روزا شارون ساكنة للحظة · ثم اتجهت ببطء ناحية الركن · تطلعت الى عينى الرجل الواسعتين المرتعبتين · ثم تمددت ببطء الى جواره · أخذ يهز رأسه ببطء من جانب الى جانب ·

ثم قالت : « لابد ان تشرب اللبن » · وقربت رأسه من صدرها ·

وقالت : « اشرب ! ·· اشرب ! ·· » بينما كانت يدها تسند رأسه بحنان ، ثم تطلعت عبر الحظيرة وابتسمت ! ·

رقم الايداع : ٩٨/٨١١٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977 - 01 - 5741 - 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

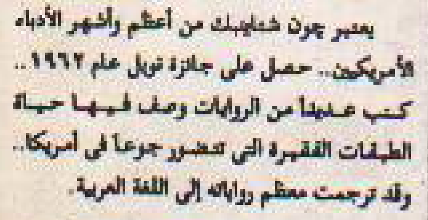
فرع الصحافة

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب



يعتبر جون شتاينبك من أعظم وأشهر الأدباء الأمريكيين.. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢.. كتب عديداً من الروايات وصف فيها حياة الطبقات المقهورة التى تتضور جوعاً فى أمريكا.. وقد ترجمت معظم رواياته إلى اللغة العربية.

وفى رواية «عناقيد الغضب» يصور لنا جون شتاينبك بأسلوب واقعى شيق وجذاب، حياة أسرة أمريكية فقيرة عبرت الولايات المتحدة الأمريكية من شرقها إلى غربها بحثاً عن عمل يدر عليهم دخلاً يكفى لسد احتياجاتهم من الطعام بدلاً من الموت جوعاً، ويحكى لنا كيف يستغل الرأسماليون وأصحاب الأراضى الأمريكيون هؤلاء الفقراء من الفلاحين ويعاملونهم معاملة أقل من معاملة العبيد.